

الحب مع مغامر مرتبك

د. منى حلمى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

كتابات جديدة

إهداء

إليه..

إلى رجل لم أرتشفه

وسكرت حتى باركتني السماء

«إليه»

ارتعاشة قلبى

وفرحتى الوحيدة

«إليه».. أهدى أعز ما أملك، وأحلى ما أكون ... كلماتى .....

منى

١٩٩٩



أشياء لها طعم الحب

مسافرة

إليه.

وصلت إلى الجنون تمنيته، وخفـــت منــه. عشت أحلم بـ لحظة تختم عدم انتمائى إلى جنس البشر العقلاء.

تحملت العمر المحسوب على زمانى، ومكانى، من أجل يوم يقذفنى خارج الزمان والمكان. مرة أخيرة، وإلى الأبد، أعلن تبرئى من النساء المرضى عنهن.

مسافرة إليه.

أجلس داخل الطائرة، فى مواجهة النافذة، أنتظر لحظة الإقلاع.

أستعيد كلام صديقتى، وهى تودعنى فى المطار: «تتركين كل شيء وتسافرين إلى رجل مجهول؟»

أرد ضاحكة «وما متعة السفر إلى رجل معلوم؟».

تقول: «حتى كلمة الحب لم يقلها لك».

قلت: «الأجمل كلمة لا تقال».

يأتيني صوت محايد الهوية، متعدد اللغات، في نبرة تفتعل الود، والألفة، يطلب الامتناع عن التدخين، وربط الأحزمة.

أربط حزام مقعدي، وأفك تأملاتي.

شغلتني في السفر لحظة المغادرة: لحظة لا أعرف لي موقعا على خريطة الوجود. لحظة تستدعي ما فات من عمري، وما هو آت، في ومضة قلقة التوهج، موحية البريق، تسحبني من أرض أقف عليها، وتشاغلني بأفق أهفو إليه. لم أعد مقيمة، ولست بعد راحلة. تقتسمني حدود الجغرافيا وقيود التاريخ. أقع أسيرة الانتصاف المحير بين الخطوط والمدارات. أتحول من إنسانة تزهو بـ قامتها الشامخة، إلى رقم على بطاقة من ورق. لحظة، أخذت حقائبي، وتركتني عارية المصير.

تتحرك عجلات الطائرة، بعيدا عن عالم يريدني قصة يكتبها الموتى. وتطلقني في الفراغ اللانهائي حروفا عصية التشكيل.

يأتيني الصوت محايد الهوية، متعدد اللغات، مرة أخرى، في نبرة أقل ودا وألفة: «نتمنى لكم رحلة سعيدة معنا».

حتى فوق السحاب، يلاحقني البحث السخيف، عن «السعادة».

غريبة، تلك المرأة الساكنة قلبي، الحاملة اسمي، وملامحي. تقع في غرام «أبيقور» فيلسوف اللذة والسعادة، لكنها لا تبحث عن اللذة، وليست بالسعادة تبالي.

هي تبحث عن ألم، يفجر طاقات النور، المخزونة في الأعماق. تسعى إلى أحزان، تباعد بينها وبين حماقات البشر. وتلهث وراء بكاء، يصادق أشجان الخريف.

تنفرنى السعادة. هى حالة انسجام، مطمئنة، وأنا أنطفىء مع الانسجام، والاطمئنان. «السعادة»، تمنحنى وهم الاجابات، تغلق نوافذ الدهشة. وأنا روح دائمة التساؤل، والفضول.

أشرب عصير الطماطم المثلج، تتوالى الذكريات ساخنة الرشفات.

كيف أقنعنى ذلك الرجل المجهول، بالسفر إليه؟ لم أره إلا مرة واحدة.

مرت ثلاث سنوات. لا شىء بيننا، الإمكالمات عابرة الحدود، وخطابات ملونة بالود، والزهور.

ثلاث سنوات، لا شىء عنه إلا «صورة» نقشت ملامحها فى ذاكرتى، و «صوت» شجى النغمات. مرة يهنئنى بـ عيد ميلادى. مرة يواسى وحدتى فى ليلة رأس السنة. ومرة يشتاق إلى صحبتى، فى «عيدالحب».

ثلاث سنوات لم أشغل نفسى بالتساؤل، أهو جرح جديد يدخل المسام، أم العاطفة التى ستمنح روحى الالتئام.

جربت لأول مرة، فلسفة اللحظة الحاضرة كفانى انشغال بـ أمس، لايعنيه أمرى، وغد لست أعرف أهواءه.

تقابلنا فى «بيروت» مدينته، وأرض ميلاده وهذا وحده يكفى، ليذهب عنى حيادى.

منذ زمن بعيد، لا أدريه، وأنا منحازة، إلى السحر المتنكر، على شكل وطن، اسمه «لبنان».

أحببت تآلف الغابات، مع البحر، واللون الأخضر، والجبال. عشقت أشعار «بشارة الخورى». منحتنى روح «جيران»، ما ينقصنى من حكمة، وعزاء. تشبهنى «فيروز» حين تحب، أو تحزن، أو تغضب. بينى وبين شجرة «الأرز» عناق غير مرئى. أحب شهية «لبنان» لاعتصار الحياة فى رشفة مركزة من دهشة الفرح، والكبرياء.

وتظل أمنيتى القديمة، أن أحب رجلا من «لبنان»، على ايقاعات «الدبكة»، نسافر لكل الأجواء.

«مصر»، أنجبتنى، «لبنان» ألهمنى. «مصر» المستقر، «لبنان» التحليق.

«مصر» بين الأوطان احترافى، «لبنان» هوايتى.

لم أصدق أننى، بعد طول انتظارى، على وصال مع «لبنان»، وفى ضيافة «بيروت».

فى كل رحلة، فاتت، كنت أتمنى شيئا يهزنى، يعيد وجهى الذى أفتقده. كنت أرهف السمع، علنى أعثر على أغنية ما، تكسر رتابة العيش.

ولأننى هذه المرة على أرض «لبنان» تحول التمنى، إلى صلاة هادئة تتوسل القدر.

يالها من رحلة، فاقت جرأة تخيلاتى. رحلة، أحرقتنى، بما يكفى لاشعال مدينة، تعانق البحر، مثل «بيروت».

أتذكر كل شىء كأنه البارحة، كل شىء حى، ينبض بالامتنان لاستجابة الأقدار.

كان آخر أيام مؤتمر، دعيت إليه. ترددت فى الذهاب إلى حفلة الختام. لم أكن فى حالة، تسمح بالسهر، والاختلاط بالناس. أريد الانزواء فى حجرتى.

لكن شيئا ما، دعانى للذهاب.

أتأمل القاعة الكبيرة، الممتلئة بالضيوف استوقفت نظراتى، الشموع الموقدة فوق الموائد. تذكرت آخر ليلة سهرتها مع الشموع. بينى وبين الشموع، حكايات منسية، وحقوق وداد مؤجلة. بينى وبين بريق الشموع، أمنيات لا تنطفئ وأسرار لاتذاب.

أراقب الرجال الحاضرين، وأندهش كيف لم يعجبنى أحد منهم؟ تختلف الأسماء، والجنسيات، والديانات. تتباين الاهتمامات، ولون العيون، وما تحوية الجيوب. لكنهم جميعا سواء. كلهم رجل واحد، يحمل على كتفيه، وفوق شاربه، غطرسة ذكورية تستحق الرثاء.

أنظر إلى رجال الفرقة الموسيقية. يبدون أكثر رقة، وجاذبية. لاشىء مثل الفن، يهذب خشونة الرجل.

يدخل مطرب الفرقة . فى خطى رشيقة يعتلى المسرح. شاب وسيم. باهر الطلعة، شهى القوام، يرضيه اللون الأسود، فى حفلة صارخة الألوان.

منذ اللحظة الأولى، انتزع شهوة الكشف، ودقة قلب لم أستردها.

عزفت الألحان. فى صوته، شىء من النبل، أضنانى البحث عنه. بين أنغام صوته، فرحت، رقصت، انتشيت، بكيت على رنانه، حزمت حقائبى، وسافرت إلى أرض الدهشة. يشدو، أدركت متى كان البدء، وأين المنتهى. ينساب من صوته خمر وقور، ردنى إلى وعيى المفقود.

كل الألحان باطلة، مالم تمر على صوته. وكل نغم «نشاز» مالم يلتحم بـ نبراته. احساسه بالنغمات، أنبأني أنه لن يمر على أيامي، مرور الكرام.

لا شيء مثل الغناء العربي، يعيد ترتيبي، ويبعث النشوة في كياني. مع «المقامات» العربية تنسجم أصوات نفسي المتنافرة، في معزوفة تحاور الكون. يوم بدون «مغني» لا يحسب من عمري.

أعجز عن حب رجل، لا يسأل «أم كلثوم» عن العشاق، ولا يشعر بـ خيانة، لو فات يوم، بدون «عبدالوهاب». رجل لا تقلب كيانه، ألحان «القصبجي»، لا أشعر بـ جدواه. أتجمد مع رجل، لا تذيبه ارتعاشة صوت «أسمهان»،ولا يبعثره الندى المتساقط من «ليلى مراد»

فما هو فاعل بي، هذا الرجل حلو الطرب، ذو الحضور الأسر؟ إن لم أعشقه فـ على قلبي السلام.

استغرقني غناؤه. تأملته بما يكفي أزمنة مقبلة.

يغني، بكل ما يكونه. حركاته، ايماءات جسده، ابتساماته، نظراته خصلات شعره، كلها معزوفة منسجمة، تضيف إلى الألحان عمقا، وجمالا.

بيني وبينه، خط هوائي، لا يشعر به أحد سوانا. بيني، وبينه، أفراح صغيرة، منسية الايقاع، نظراتي مشتاقة، وترد عيناه بـ دهشة وامتنان.

بعد أغنيته الأخيرة، فوجئت به، يأتي إلى مائدتي ، ويجلس بجانبي. ارتبكت، اضطربت، ماذا أقول؟ وكيف أتصرف؟ حاولت أن أبدو طبيعية، وأنفي فرحتي.

احتميت بالكذب من شدة صدقى. أول مرة، أجرب إحراجا يزيد وقارى، وأتذوق للخجل طعما، يطلق سراحى.

اقترب أكثر، وبـ عذوبة قال: «أشكرك» قلت: «لماذا أنا؟ والنساء يملأن المكان؟

بـ عذوبة أكثر يقول: «ألا تعرفين؟ لم أر سواك. الجميع منشغلون بالطعام، والضحك، والكلام. النساء فى منتهى الشياكة، والأناقة. ولا واحدة منهن مهتمة بالطرب. كن يتعجلن فقرة الرقص التالية. كنت جمهورى الليلة وغنيت لك وحدك. أحسست بك فى كل الألحان، خاصة لحن «القصبجى».

لهجته اللبنانية، تذيب ما تبقى من مقاومتى. وحين ذكر «القصبجى»، تأكدت أنه أنشودتى الضالة.

قلت: «لك صوت نادر، واحساس دافىء قلما يجود بهما الزمن. لديك شخصية مميزة، وأسلوب متفرد. أنت تغنى بـ روحك، وقلبك، وعقلك، وجسدك. أنت معزوفة متكاملة طالما بحثت عنها».

يقول: تبحثين عنها، وهى داخلك؟! صوتك متدفق بالحياة. فيه ثراء خفى، وأنوثة ثائرة على كل شىء. أنت امرأة تسكنها الموسيقى، وتحركها الأنغام».

قلت: «ولكننى أغار من كل امرأة، أو رجل، يستطيع الغناء».

قال: «الغناء ملك لكل الناس، كالماء، والكرامة، والهواء».

قلت: «الغناء موقف من الحياة، وليس مجرد صوت».

قال: «انتظرت طويلا، امرأة تفلسف الغناء».

سألنى : «متى تتركين بيروت»؟

قلت: «غدا، أرحل مع الفجر».

قال: «تحتاج بيروت زمنا خاصا بها».

قلت: «بيروت عشقى بين المدن، لا تتخيل كم يؤلمنى رحيلى السريع».

قال بـ نبرة صوت مازلت ارتعش لها: «بيروت تحب من يحبها، ولن تفرط فى عاشقة لها، وللمغنى العربى مثلك».

منذ ذلك اللقاء، ولـ مدة ثلاث سنوات، هو فى حياتى، رنين الهاتف الذى يشجينى، والخطاب بين سطوره أحتمى بالدفء.

لست أعرف عنه شيئا، وليس يعرف شيئا عنى. عبر الهواء المسافر، كسرت المنطق، والتوقع. تجاوزت معه، حدود القلب، والكون، وكل رجل عرفت.

كان عزائى، أن سماء «بيروت» تحتضنه، وترعاه. بعد كل مكالمة تصلنى منه، أوخطاب، أحب أكثر صدفة انتمائى لأرض تتكلم العربية، وتشدو بالغناء العربى. أحسست ولعى بالموسيقى العربية، حيلة جميلة، صنعها القدر تمهيدا له.

أخذ من «لبنان» عنفوان الجبال، تدفق الوديان، وجموح البحر. روحه مفعمة بـ عشق متجدد للحياة. له قلب يهوى المغامرة، لا يعترف باليأس. فيه حياء قطرات الندى، وجرأة المطر.

مثل «لبنان»، فى الصباح يحارب من أجل وجوده، وفى المساء، يغنى من أجل الحياة.

فى مكالمة يقول: «وجودك فى حياتى، يجعلنى أكثر اصرارا على طموحى».

وفى مكالمة أخرى يصرخ: «أنا فنـــان، ولسـت تاجرا، أو سمسارا، أو بهلوانا وأحــلامـى أكـبــر من ترديد أغنيـات الماضى. يومـا مــا، سـأشـدو بـ ألحانى».

وكنت أقول له: «أنا مؤمنة بك».

يرد قبل انقطاع الخط: «هذا يكفينى»

مسافرة إليه.

لحظات مـعدودة، تصل الطائرة إلى «بيـروت». اليـوم، وبعـد ثلاث سنوات أراه. اختـرقت موهبتـه الحصار، والليلة يشدو بـ أول نغمـة فى معزوفته الخاصة.

فى مكالمته الأخيرة، يسألنى: «هل تأتين؟ أتستطيعين المجىء إلى بيروت، أنت ملهمتى فى ألحانى، ورحلة كفــاحى. لن تكتــمل فرحتى إلا بك. فى ختام الحفلة، مفاجأة لك. ستأتين أليس كذلك؟ أنا فى انتظارك».

كيف أسمح لنفسى بالتردد؟ إنه يوم أنتظره، ربما أكثر منه فـ الرجل ذو الأحلام المعطلة، عاجز عن الحب، ولا يصنع عاشقا عظيما.

أعددت كل شى فى أيام قليلة، ثمن التـذكرة، حجـز الفندق، أجـمل أثوابى، ونسخة من أحدث كتبى.

تساءلت وأنا أغلق حقيبة السفر، ماذا أريد من ذلك الرجل المقيم فى ديار بعيـدة؟ على مـدى السنوات الثـلاث، لم أقل لـه «أحـبك» أبدأ، لم يكتب «حبيبتى». أكـذب لــو قــلت إنى أعرف، أكذب لو قـلــت أنى لا أعرف.

الجديد معه، أننى أجرب كونى «ملهمة» لـ رجل فنان. دائما أنا الباحثة، عن رجل يلهمنى. أتوق هذه المرة، إلى مذاق مختلف.

كان شرطى الوحيد، ألا يأتى لاستقبالى فى المطار. أردت أن تكون لحظة التقاء عيوننا، لأول مرة، بعد السنوات الثلاث، هى لحظة ميلاده الفنى.

المساء يلقى بـ ظلاله على بحر «بيروت». يزداد غموضها سحرا، وترحيباً بالعشاق.

عند باب المسرح، ترك لى دعوة، فى الصف الأول. الديكورات بسيطة، هادئة الألوان. المقاعد ليست تلمع بماء الذهب، وليست مبطنة بالقطيفة

بساطة المكان تبعث على الراحة، وتعيد للنفس اشتياقاتها المجهضة.

أطفئت الأنوار ورفع الستار.

يدخل «هو» هالة من الاشراق، والنور. خطواته متأنية، شامخة. فى ثقة متواضعة، يرد تحية الجمهور.

أكاد أشعر باهتزاز المكان، من شدة وسرعة خفقان قلبى.

يبعث بـ كيانه نحوى، ليتنى ما سافرت إليه؟ لماذا أنا هنا؟ باختيارى، أوافق على حضور مراسم فنائى؟؟

انفلتت الأرض من مدارها، توقف كل شىء فى الكون، إلا ابتسامة «بيروت» تبارك عناقا بالروح، والجسد، ودفء البكاء.

أحتاج قوة كونية هائلة، تحول بينى وبين الموت. لم أتصور الموت لذيذاً بـ هذا الطغيان. أحتاج قوة كونية، أكبر، لأصف فى كلمات لها الخلود، نشوة موت أحيانى.

أخذنى إلى عينيه.

أشتهيك أيها الرجل. وأشفق عليك من تمرد عفتى.

تدفقت ألحانه. تسكن موسيقاه، مدينة فاضلة، نتوق للرحيل إليها. تشع من نغماته، نداءات غامضة، لكل قلب وحيد، حائر.

ثم انساب لحن، تألفه ذكرياتى . معه اكتشفت العاشقة المختبئة داخلى، وعلى أنغامه، عشت حلو الانتظار. أيكون مفاجأة الختام، التى وعدنى بها؟

أستمع إليه، شاديا بأغنية أسمهان، ولحن القصبجى، «إمتى هتعرف إمتى، إنى باحبك أنت».

وأطلقنى محلقة على بساط من الفرح، والزهو. تضاعفت حتى افترشت السماء، وعثرت على نجمتى عنيدة الضياء.

سألت نفسى لماذا هذه الأغنية؟ أجابتنى على استحياء: «ربما.. الكلام إليك يا جارة».

يستقبل تصفيق الجمهور. بـ دموع لم يرها أحد سواى. نظرته الأخيرة قبل نزول الستار تعدنى بما يفوق احتمالى.

جريت إلى الباب الداخلى للمسرح، جمع كبير من الناس، باقات الورد تملأ المكان. ابتعدت عن الناس، والورد، ووقفت من بعيد أرقب ظهوره.

على مدى البصر، ألمحه خارجا بـ صحبة امرأة، تستقبل معه، كلمات التهنئة والاعجاب.

من تلك المرأة الملتصقة به؟

تقترب خطواتهما نحوى، وأنا أبتعد. بين زحام الناس تبحث عنى عيناه يتقدم، وأنا أرجع.

من تلك المرأة الملتصقة به؟

مازالت عيناه تفتش عن مكانى. تزداد المرأة التصاقا به. يتقدم، وأنا أرجع.

رأيت خاتما ذهبيا يلمع فى يده اليسرى.

تواريت فى صمت الأفق.

رجل بـ مذاق الشجن

لم أكن أتخيل أنك قصتى الجديدة انتظرتنى طويلا، لأنقشها على أوراق صـمـتى. لم يخطر ببـالى، أنك الإلهـام المتعطش له قلمى، وأن لقاءنا المتكرر صدفة، هو الدقة الهارية من قلبى.

أنت، أنت ولا أحـد سواك، أثرت انتبـاهى، وحب فضـولى. كنت أراك بين الحين والآخـر. شىء مـا فيك يقـربنى، وأشـياء كـثيـرة تشـد خطوتى بعيـدا عنك. شىء مـا، لا مبرر له، ولا منطق، يهزنى بعنف، يبعثر وقارى، كلما فاجأتنى عيناك..

لا أدرى لماذا حين يجمعنا مكان واحد، أشعر بالخـجل، وأظل مؤرقة حتى ترحل عن أفق رؤيتى..

وجـاءت ليلة الأمـس، التى أطاحت بما تبـقى من احـتمـالى.. ليلة الأمس حلمت بك. كيف عرفت عنوان مخدعى؟

كيف اقتحمت خلوة نومى، طردت كل أفكارى، وهواجسى، وجئتنى فى أحلامى؟

غفوت ليلة الأمس، وأنا أشكو غربتى وحرمانى. كم أحس بالوحدة.. وكم أود الهروب من دنيا لا ترضينى..

غفوت أسيرة بكاء، يأبى أن يبلل وسادتى الحنون..

وفجأة تظهر «أنت» فى وحشة غربتى، ضوءا، مبهرا، يشق عتمة الليل..

سافرنا إلى «البحر»... سبحنا معا حتى التلاشى .. رقصنا على أنغام «القمر» .. مشينا فوق سحابات الدهشة.. تحاورنا حتى ذاب على شفتيك كل الكلام. لمست يدى بـ حياء تستغربه جرأة الأحلام، فأحسست أنى امرأة لها الخلود..

صحوت من نومى، تلفنى الحيرة. لماذا جئتنى فى الحلم، والواقع بيننا دروب من سراب؟ كيف تتجرأ على لمس يدى، حتى لو كان الأمر طيفا فى منام؟..

أزعجنى الحلم بك. مالى أنا ومالك؟ لست مستعدة للدخول فى دنيا الأوهام. لم أعد مهيئة لأحلام تحجب عنى النور، وتخنق فى سمائى شهقة النهار..

ورغم انزعاجى، لم أشرب قهوة الصباح، حتى لا أفيق من الحلم معك، وأظل ملتصقة بك..

هذا الصباح، وجدتنى أتأنق، وأنا أتهيأ للنزول. أشدو بأغنيات حالمة كأننى فى بدايات العشق. أتلهف لملاقاة الشجر، والهواء، والطيور، لأحكى لها عنك، وعن الحلم بك..

كنت على موعد مع صديقتى العالمة بكل أسرارى، إلا سرى معك. ذهبنا لتناول الغداء، فى المطعم المكيف الذى تفضله صديقتى..

جلسنا معا إلى مائدة، تحيطها باقة من الزهور الصناعية. لكن الحلم بك، أضفى عليها أحلى عبير..

طلبنا الغذاء. أخذت أتجول بـ عينى، بين مساحات الفراغ. لا أدرى عما كنت أبحث. عنك؟ ربما وإذا بى أتجمد فى مكانى..

يا ربى، هذا غير ممكن. أيعقل ما أشهده هذه اللحظة؟

«أنت»، فى صباحية الحلم بك، أراك جالسا أمامى، تتناول غذاءك؟ كيف أحتمل وجودك اليوم ضيف يقظتى، وبالأمس كنت ضيف أحلامى؟

ارتجفت، ارتبكت، تصببت عرقاً رغم برودة المطعم المكيف..

تلاشت رغبتى فى الطعام، وانطلقت شهيتى النهمة نحو عينيك.. أرسلت لى نظرة، وكأنك عالم بـ حالى. نظرة واحدة أنهتنى، فضحت أمرى، وألقت الحلم بك مشاعا فى الهواء..

نظرة واحدة على البعد، تغلغلت فى دمى، أرجعتنى طفلة حلوة القسمات؛ أعادتنى امرأة تحن إلى أنوثة الحكايات..

نظرة واحدة حسنة النوايا، بريئة من أوهامى، وتداعياتى. نظرة لم تتعمدها عيناك، صالحتنى على عمرى الضائع..

سألتنى صديقتى: «ماذا بك؟»..

قلت: «تصورى ليلة الأمس جاءنى رجل فى المنام، واليوم، وهنا والآن، يدخل المكان ويجلس أمامى. تصورى، رجل لا أعرف عنه

إلا الاسم والملامح، يزورنى فى الحلم، ويذهب تاركا لى لمسة يديه، فأصحو أجده صدفة.. جنون ما أحسه، وأراه»..

سكتت صديقتى عن الكلام..

أتأملك وأنت تتناول غداءك. حركاتك مفعمة بالرقة، صوتك هادئ، أعشق الجدية الممتزجة بـ ملامحك، ونظراتك..

بك شيء من النبل المتوحش، لا تدركه إلا امرأة تهوى الخطر. رجولتك لها مذاق الشجن، تأسر دون جهد، تغازل فى صمت بالغ الأدب. لك جاذبية تناجى شيئا طال غيابه. من عينيك يطل حزن لاتداويه نساء الدنيا. بك توتر لا يصيب إلا قلب فنان، ويشع من روحك قلق، لايستقبله إلا قلب فنانة. ألهذا ترتدى نظارتك الشمسية، حتى فى الحجرات المغلقة؟..

اخلع عنك نظارتك، واطلق حزنك فى وجه العالم. لا تخفى خطوط الزمن المرتسمة على جبهتك. إن لم تنل استحسان العالم، فهذه مشكلته، لا مشكلتك أنت. «أنت» رائع هكذا، كما أنت، بأحزانك، وتوترك، وعينيك المتعبتين، وقلق روحك، وخطوات السنين على جلدك..

فرغت من طعامك، طلبت الحساب، وفى لمحة عين اختفيت..

ترمقنى صديقتى بنظرة شفقة وتقول: «كم أرثى لحالك. حياتك كلها أوهام فى أوهام. تصنعين من الخيال حقيقة، ومن الحلم واقعا، ومن نسمة هواء عاصفة، ومن قطرة ماء ليست لك، بحرا تغرقين فيه وحدك»..

قلت: «الحياة كلها ليست إلا وهما كبيرا. على الأقل فى حالتى، أنا أختار أوهامى، أبدؤها وأنهيها حين أريد. مع الحياة لا اختيار لنا، لا فى البداية، ولا فى النهاية»..

ترد صديقتى: «لن أستطيع مجاراتك فى هذا الحديث كالعادة. المهم ماذا تفعلين بالرجل الذى جاءك فى الحلم»؟

أقول: «لا شىء سوى أننى سأكتب»..

تتركنى صديقتى مرددة: «دائما الكتابة، ولا شىء غيرها»..

نعم دائما وأبدا الكتابة، ولا شىء غيرها وهل هناك شىء بعد الكتابة؟..

أيها الرجل الهادئ فى ملامحه، وأحزانه، جاءنى فى الحلم، وجاءنى على الورق، أتود قراءة ما ألهمتنى اياه؟ قصتى منك، حق لك، خذها..

لا أطلب شيئا منك. حتى تفسير الحلم وصدفة اللقاء لست فى حاجة إليه. الأجمل أن يظل الحلم بك، سرا، أناجيه، وغموضا يؤنس ليلى الموحش. ابق لغزا من ألغاز القدر، أتعثر فيه، ولا أقع..

لا أطلب شيئا، سوى أن تحتضن فى حنان، قصتى منك.

ادخل إلى سطورى بدون تحيزات مسبقة. اقرأنى متجردا من تزمت التقاليد، وقيود الزمان، والمكان..

تؤكد ملاحظتى لك من بعيد، أنك تجيد فن الاصغاء، فلا تبخل على حروفى. فتش عنى فيما كتبت حتى تجدنى فيما لم أكتبه..

لا تخف من طوفان المشاعر، اجتاحك دون سابق انذار. هل جربت من قبل، السباحة فى امرأة، تزهد شواطئ الرجال؟..

منذ زمن بعيد، اكتشفت أن «الكاتبة»، و «الأنثى» داخلى لا تجتمعان، وقررت انحيازى ضد أنوثتى. لا تخف، فأنت معى فى أمان..

لا أستطيع التكهن بما سيكون عليه شعورك، وأنت تقرؤنى. دهشة؟ غضب؟ لا مبالاة؟ استنكار؟..

لـكـــن لا مفر. سآخذ فـرصتى وانتظر أى احتمال ممكن، من رجل لا أعرفه، وجاءنى ليلة الأمس فى الحلم..

لست للرجال الأحياء

ليس بالشيء الجديد، احساسى بـ أننى غريبة عن الدنيا، وأننى لا أنتمى إلى هؤلاء البشر، الذين يتكدسون فى المكان، والزمان، والهواء .

ليس بالشيء الجديد، أن تلازمنى تساؤلاتى عديمة الجدوى، لماذا يمنحنى الوجود مساحة من الفراغ، والكون بـ أسره لا يسعنى؟

لماذا فى يوم من أيام الربيع، متقلب البهجة، تهتز الأرض، تنفض عنها ركود الشتاء، ودون استئذان، تلفظنى إلى حياة، كلما تأملتها، كلما عجزت عن فهمها ؟

ليس بالشيء الجديد، أن تحجب ستائر الزيف، دفء تأملاتى، وأن تعكر وجوه لا ملامح لها، مذاق قهوتى الصباحية.

ليس جديداً أن أزداد هدوءاً، فى عالم يزداد صخباً، وأن يطربنى الصمت أكثر، فى زمن يحترف الثرثرة.

مـــأزق ، أن أكون عاشقة لـــلتفـــلسف، والنساء حولى، لا يعشقـــن إلا الرجال. ومأزق أن يستهوينى العيش فى ظل وحدتى، و سنة الحياة المتوارثة، العيش فى ظل رجل.

مأزق، أن أتجرأ على كراهية الأطفال، وأحيا بين ناس يؤمنون، أن الأطفال أحباب الله.

ليس بالشىء الجديد، أن تباركنى أنجم المساء، لأننى مازلت شائكة الملمس، برية اللون، جامحة العبير، وحيث أعظم نشوتى، أن أبقى متفرجة، على رواية، لا تلائمنى أدوارها.

ليس جديداً، شعورى بالغثيان، لأن الغد، لا يأتى بـ جديد تحت الشمس.

تعودت على حياتى، صادقت مشاعرى المتكررة، وألفت هذا «الشذوذ» الذى يمنحنى إحساسا بـ أننى طبيعية، ويجعلنى مع تهاوى الأشياء، متوازنة، مطمئنة النفس.

لكن شيئاً ما، لست معتادة عليه، وليس بالأمر المتكرر، بدأ يربكنى.

شىء قدر ما أتمناه، قدر ما أقاومه، قدر ما أخافه، قدر ما يداعبنى الحنين إليه.

شىء جديد تماماً ، بعد أن فقدت الرجاء فى انكسار النغم الرتيب.

شىء جديد.. كيف؟

جربت كل شىء فى الحياة، ولم يعد هناك، ما يمكنه أن يثير شهيتى للكشف، أو يبعث فى روحى مجرد حب الفضول.

شيء جديد، دون توقع، ودون تمهيد، أدخلنى إلى دهشة، كنت قد نسيت ارتعاشى بـ سحرها.

بعد أن أوصدت كل أبواب الرغبة، أزف إلى مغامرة الاشتهاء، وحيرة الأشواق.

بعد أن طال اعتكافى بين أطياف الذكرى، أخرج إلى النور، والألوان، والغناء.

شيء جديد اسمه «أنت».

من أين جئتنى؟ كيف اهتديت إلى قلعتى المهجورة؟

لماذا تريد الإشراق، فى سمائى الملبدة بـ عشق الوحدة؟ كيف ترغبنى، وأنا امرأة، وعرة الرغبات؟

لماذا يجذبك الحديث معى، وأنا الناطقة بـ لغة، لا يعرفها أحد؟ لماذا تلاحقنى بـ عينيك، تطاردنى بـ صوتك، وتحاصرنى، بـ أيام تنتظرنا معا؟

شيء جديد اسمه «أنت».

«أنت» هامش الفوضى، الذى تتوق إليه أيامى المرتبة أكثر من احتياجى، أو احتمالى.

«أنت» دعابة المرح، التى فقدتها مع جديتى الصارمة..

«أنت» الرجل الوحيد، الذى عرفنى، ولم يناقشنى فى تغيير نمط حياتى.

«أنت» الرجل الوحيد، الذى استهوته سباحتى ضد التيار، ويسعده أن يشاركنى خطر الموج.

«أنت» الوحيد، الذى لم يطلب منى، أن أصبغ خصلات شعرى البيضاء.

«أنت» من بين كل الرجال، الوحيد الذى لم أتمرد عليه.

أخذتك قضية بديهية، أكبر من كل ظنونى، وشكوكى، واعتبرتك مثل «الماء»، و«النار»، و «التراب»، و«الهواء»، من عناصر تشكل الحياة، فى سرها الأول، وسحرها الأبدى.

كل شىء فيك طازج، ذو نضارة أسرة. كل شىء فيك يغرينى، لكننى فى وجه اعصارك صامدة.

أيها الرجل الجديد، الحادث فى زمن قديم، دعنى وحال سبيلى. ارجوك بـ رعشات الود المسافرة بيننا، اتركنى والدنيا التى أحملها، فوق أنفاسى.

أيها الرجل ذوالحساسية المرهفة لـ تفاصيل شجونى ، لاتفسد حياتى بالفرح المختبئ فى عينيك.

أرجوك، تراجع قبل فوات الأوان. لا ترسل لى كلمات الحب، وباقات الزهور، وشرائط الموسيقى التى تؤنس أمسياتى، وكتب الفلسفة التى أعشقها.

تراجع قبل أن ينهار آخر خيط فى مقاومتى.

لقاؤنا الليلة. لابد أن أحسم الأمر معك. لابد أن أبصرك بالحقيقة. فأنت لا تدرى، إلى أى أرض ملغمة دخلت، ومن أى امرأة تنشد الوصال.

امرأة أنا، لا نصيب لها، مع الرجال الأحياء. كل الرجال الذين انسجمت معهم، وتلاقت روحى مع أرواحهم، جميعا من «الموتى».

هم فلاسفتى، الذين يمنحونى العزاء، فى تلك المأساة الساخرة.

هم فلاسفتى، الذين يأخذون بـ يدى المتعثرة، فى درب معتم، إلى طاقة نور لا يخبو.

وأنا معهم، أسمو فوق حماقات العالم، أحلق بعيدا عن تفاهات الناس المرعبة، أتطهر من أوهامى، وأشرب نخب ذاتى المقدسة.

كل واحد من فلاسفتى، فيه شيء من نفسى، وهم جميعا بداخلى.

هؤلاء هم الرجال الوحيدون فى حياتى. لم أعرف معهم، خيبة أمل، أو مرارة، أو ندماً.

لا أذكر مرة. أننى طلبت «سقراط»، ولم أجده، لم يحدث مرة، أنى واعدت «زرادشت»، وجاء متأخرا. أو أردت محاورة «أفلاطون»، وقال أنه مشغول. لم يحدث أننى اتفقت مع «شوبنهاور» على لقاء واخلف الميعاد. أبداً لم يحدث، أن جاءنى «ديكارت»، أو «نيتشه»، متوعك العاطفة، أو فاتر المزاج.

كل واحد من فلاسفتى، بـ سخاء يعطينى أحلى ما فيه، وأنبل ما يكونه، ولا يأخذ منى شيئا.

لم يفكر «سبينوزا» أبداً أن يغازلنى. لم يطلب «روسو» امتلاكى، بالزواج منى. لم يخطر على بال «بوذا»، أن يمد سيرته فى الدنيا، ويأتى بـ وريث، على حساب طموحى، وجسدى. ولم ينشغل لحظة «أرسطو»، بأن ينصب نفسه رقيبا،يقتحم دمى وذكرياتى وغرفة نومى. أبدا، لم ينزعج «أبيقور» لأنه ليس الوحيد، الذى يدق له قلبى .

فلاسفتى الذين أعشقهم،عطاء مطلق زاهد، حضور دائم التوهج، ثورة عارمة لا تخمد.

هم قصة تناغم، اكتفيت بها. هم يملأون نصف الكأس الفارغ. هم مناعتى الوحيدة، ضد الجنون، أو الانتحار، أو الكآبة.

الليلة، لقائى بك. سأصارحك بكل شىء.

ذهبت إليه فى الموعد. يجلس أمامى، فى كامل أناقته، وعاطفته. أهدانى وردة، وابتسامة، وكلمةحنين. وكانت هديتى، لحظة صمت، تتأمل عذوبة ملامحه.

يستمع إلى حديثى، بـ كل كيانه، قلت كل شىء ورجوته الابتعاد.

قال أنه يريد الدخول فى منافسة، مع هؤلاء الفلاسفة، الذين يملأون حياتى. سألنى أن أمنحه، فرصة لـ مواجهة هذا التحدى الغريب.

أدهشنى اصراره، وزادنى اعجابا به.

لكننى «مرتبطة»، وفى حالة استغناء.

والأهم، أننى لست مهياة، للتأقلم مع عالم الرجال الأحياء.

رحل وذهبت أنا إلى موعدى.

الليلة ألقاه على شاطىء النيل، من علمنى أننى لا أنزل فى النهر الواحد مرتين. الليلة، موعدى مع «هرقليطس».

اخرج من دمي

اخرج

من دمي..

أكسبتني مناعة ضد نزوات لا تجرؤ عليها أحلامي.

اخرج من دمي..

مثل «الماء» أنت، لا طعم لك، ولا لون، ولا رائحة. لكن الحياة بدونك محال.

مثل «الهواء» أنت، دائم الغدو والترحال. لكنك رغما عني، تدخل إلى صدري.

أنت، مثل «النار» في لحظة، تحرق وتسبب الدمار. ولحظة أخرى، تمنح الدفء وحلو الانتظار.

مثل «التراب» أنت، منك جئت إلى الوجود، وإليك عند المنتهى الرجوع.

أنت، الأسطورة العجيبة، التي حين تتحقق، تصبح أكثر خيالا.

أنت، نقطة ضعفى الوحيدة، التى منحتنى قوتى، فى عالم لا أود الانتماء إليه. أنت التوتر الموحى بالسحر، والشعر والغناء. أنت الرجل المطلق الذى يلائمنى فى كل زمان ومكان. أسعى إليك، وكأننى إلى نعيم الأبدية، ساعية. مفتونة فى وجودك، ومسحورة فى غيابك، وما بين الوجود والغياب، أموت مرات ومرات ويبكينى الاكتشاف المذهل، أننى كلما مت فيك، تعلمت أكثر، كيف أحيا.

صنعتك من عشقى المجنون، وأمنياتى المستحيلة، وكان نصيبى التنكر والجحود.

ملأت لك الكأس، رويت غيرى، وتركتنى وحدى، مع ليالى الظمأ.

لم أغضب منك. فأنا أدرك جيداً، أن الطريق نحو الأبدية، ليس مفروشا بالزهور. أدرك جيداً، أن الرجل الذى يحررنى من نسيبتى، ومحدوديتى، هو كالجبل الشامخ الوعر، لا تتسلقه إلا روح، لا تمل الابتلاء.

أنت أحلى تناقض أوجعنى إلى حد اللذة. أنت كل شىء جميل، إلى درجة الألم.

لكننى، ومع كل هذا، أطلب منك الخروج من دمى. أنت تريد امرأة مجربة، تتقن فن الاغواء. تدعوك بـ ضحكات خليعة، وثوب مفضوح الصدر، إلى جسدها المترهل، المثقل بالشحوم والفراغ والحرمان.

بينما أنا لست امرأة.

أنا فتاة نحيلة التجارب، أتقن فن مداعبة اللغة. لى جسد مشدود، يجد نشوته فى أحضان الموسيقى، وترويه السباحة تحت الماء.

نعم، أكتب عن العشق، والغرام والهوى. لكننى أبداً، لم، ولن، أهب نفسى لأى رجل.

أنت تريد أنثى تشتهى معك الليالى الحمراء.

وأنا أديبة، أشتهى المجد..

أنت تلزمك عاشقة تلقاها فى الحجرات المظلمة. وتخاف أن يعرف أحد، أنك تأتيها، عندما يأتى المساء. بينما أنا يلزمنى رجل، ينثرنى فى الهواء، يبعثرنى على الزهور، يرمينى فى عين الشمس، ودون استشارتى، يجاهر بالمعجزة التى جمعتنى به.

أنت تريد امرأة، إذا سألوها عنك، أو جاءت سيرتك، أنكرت، واستعاذت بالله، أن تكون أنت، نديم الوصال.

بينما أنا، أعلن على الملأ، تورطى الميئوس منه، مع شفتيك. أصرح بك، كاسمى، ووحدتى، وأشجانى الرمادية المعلقة على خصلات شعرى.

أنت تبحث عن علاقة، لا تمنحها شيئا، إلا وقع خطاك المقدسة على الأرض.

وأنا أبحث عن رجل، يؤرقه السهر، حين يفرط فى الأخذ.

أنت تهفو إلى دور السيد الأوحد المطاع، وأنا لست من فصيلة الجوارى.

أنت لا تؤمن بالحب ولا أمان لك مع النساء.

أنا لست أفضل حالا منك. منذ زمن طويل، نضوت عنى هذا الوهم.

وحين يتعلق الأمر، بـ مشاعرى، أصبح أكثر تقلبا، ومزاجية منك.

الفرق بيننا، هو أننى، لم أفقد قدرتى على رؤية، آخر، غير ذاتى. أما أنت، ورغم حلاوة عينيك، لا ترى إلا شخصا واحداً، هو أنت.

لديك موهبة غير قابلة للمنافسة، فى فقدان، أى امرأة، تأخذك بـ جدية. وكأنك خلصت من تجاربك الماضية، إلى أنك لاتستحق، إلا النساء المائعات، والعلاقات التى لا قوام لها.

ألهذا الحد، تكره نفسك؟

تقابلنا منذ أيام، مصادفة. كم عشت فى انتظار، أى مصادفة، تلقينى فى طريق عينيك. كان بإمكانى دائما، أن أطلبك على الهاتف، وأدعوك إلى عشق، لم تؤهل لأن تدرك جوهره ومغزاه.

لكننى تقبلت الحرمان، بكامل اختيارى. آثرت ترتيب الأقدار، وأخذت أنتظر مصادفة خير هى، من ألف ميعاد.

لماذا المصادفة؟

ربما خاب رجائى، ولم يبق إلا القدر، هو الوحيد القادر عليك.

ربما لأننى ألقى المسئولية، على أقدار، دفعت بك، إلى حياتى، وجعلتك جرحا لا يلتئم. وعليها وحدها، أن تكمل ما بدأته. إما أن تشفينى، أو أن تقضى على بقيتى.

أو ربما أردت اختبار، إلى أى مدى، هناك أسرار كونية بينك، وبينى، لا أنا أدركها، ولا أنت، تدريها. وحده القدر، الملم بـ خيوطها، فـ حين تحل مشيئته يجمعنا، ولا راد له.

هاهى المصادفة التى انتظرتها طويلا، تحدث. ويا للمأزق الذى أوقعتنى فيه. بينى وبينك، نوع من النساء، يستهويك. بينى وبينك، نوع من الرجال، لا يستهوينى.

هاهى المصادفة التى انتظرتها طويلا، تسخر منى.

أتفرج عليك، وأنت تمرح، وتهزر مع النساء. كنت حريصا، على الاهتمام بهن جميعا.

واحدة فقط، من كل نساء الجلسة، سقطت من مرحك، وهزارك.

واحدة فقط، تعمدت الا تطيل النظر إليها. واحدة اسمها « أنا».

كل شيء فيك يقول: «أنا لا أعرف هذه الفتاة». ترتعش، وتنتفض، كلما اقتربت منك، بكلمة وكأننى تهمة، تود أن تبرئ نفسك منها. أو دنس، ترغب فى إعلان التطهر منه، أمام من يهمه، أو لا يهمه الأمر.

ألنت الذى تريد انكارى؟ يا لسخرية القدر. تحملت فيك، أشد اللوم. لم يعرف أحد، قصتى معك، إلا وأدهشه اصرارى عليك.

أنا الإنسانة ذات الإحساس المرهف، يستهوينى رجل خشن الوجدان؟

أنا الصادقة، أشتاق إلى رجل مفتون بالكذب؟

أنا سخية المشاعر، يعجبنى رجل، لا يعرف العطاء؟

كيف، وأنا الرومانسية، أتعثر فى رجل، يصيبه الخيال بالدوار؟

أنا الهادئة، ألهث وراء رجل صاخب؟

أنا الملولة، أصبر طويلا عليك؟

أعتقدت أننى فى حالة «غيبوبة» عاطفية، سأفيق منها، سريعا.

عشت بك سنوات، ولم أفق منك. كنت فى حياتى، البلاء، الذى أستره عن العيون. كنت «النكتة» التى أضحكت الجميع، وأبكتنى أنا. طوال الوقت، كنت متشبثة بـ خيط رفيع، من النور، يصل ما بين قلبينا لا أعرف، كيف عثرت عليه، وداخلك سرداب معتم؟

أبداً لم تفتر أمنيتى، أن تكون مشاعرك، فى وسامة ملامحك.

ذلك الوهم الجميل، اسمه «الأمل»، أبداً لم يفارقنى، فى أن يأتى يوم، تدرك فيه، لماذا التقينا... وما هذا السر العجيب، الذى يشدنى إليك.

كم تمنيت أن يأتى يوم، تكتشف فيه، أننا أكثر مما تتصور، متورطان معا. تمنيت أن تدرك، أننا فى التحام عضوى، وأنك فى كل مرة تجرحنى، تفقد شيئا من ذاتك.

واليوم، أراك على الملأ، تفعل كل شىء، للتنصل منى. اطمئن نجحت فى اقناع الجميع، بأننى لست أكثر من ضيفة، أقحمتها المصادفة.

اطمئن، بعد تصرفاتك اليوم، لن يجرؤ أحد على الظن، أن بينى وبينك موجات اشتهاء، سرية المذاق، باركتها لنا السماء، ونحن قد لعناها.

اطمئن كنت مقنعا، إلى حد إثارة الإرتياب.

أصب لك الحنين.

تصب لى شاياً مرا باردا أعطيت حلاوته، وحرارته، لامرأة بجانبك، تراها لأول مرة. كعادتك، كتبت لها رقم هاتفك، وكان ردها، لمسة لـ يديك، لا تعرف حياء البدايات.

تذكرت أننى بالأمس، أرسلت لك، ثلاث هدايا، أحضرتها من السفر الأخير.

ما الذى حدث بيننا، لكى تأخذنى قضية بديهية، لا تستدعى مجرد كلمة شكر، محلقة فى الهواء؟

ما الذى حدث بيننا، فلا يثير فيك اهتمامى، إلا الصمت الموحش؟

أرى الإثارة على وجوه النساء.

يسرنى، أن تعتقد كل واحدة منهن، أنك مشروع عاشق. كم يستهوينى هذا الخداع، الذى تجيد طقوسه.

أجلس صامته، هادئة، مبتسمة، مطمئنة النفس. فأنا وحدى، أدرك ما بداخلك. أنا وحدى، أعرف أبعد مطاف يمكن أن تدركه مع النساء. ورغم شكوتى الدائمة، من عطائك الضنين، أنا وحدى، أخذت أحلى، وأنبل، وأغرب ما فيك.

لقد اعترفت لى، مرة أنك منحتنى، أقصى ما يمكن أن تنتزعه منك امرأة.

فما الذى يضيرنى، لو استدرجتنى المصادفة اليوم، لأشاهد رواية هزلية، أعرف مقدما دورك فيها؟

ما الذى يضيرنى، لو تحملت بعض الوقت، لهوك الساذج مع نساء الجلسة. وحدى، أعرف كيف يكون مصيرك آخر الليل..

ما الذى سأخسره، لو سمحت لكل النساء، أن يأخذن الصورة المؤقتة الزائفة، وأنا دونهن جميعا أحمل الأصل فى دمى؟

هيا اذهب إليهن. اسمعهن كلامك المعسول، المكرر، أحفظه عن ظهر قلب. وعش ليالى العربدة، التى تستهويك.

الهث وراء آخر رشفة انتشاء. لا تدع واحدة منهن،تفلت من أحضانك المراوغة متعجلة الرحيل، متوترة الدفء.

ولكن، حين تعود إلى مأواك، ولا تجد إلا ظل الجدارن، أنيسا.. أرجوك فى تلك اللحظة، لا تتردد فى مكالمتى.

سأكون فى انتظارك، فى تلك اللحظة المحرجة، الحرجة. لا تخجل أن تعترف أنك، ورغم التصاق بقايا رفيقة الليل بك، مازلت وحيدا، غريبا.

أرجوك دعنى أسمع صوتك، حين يفزعك أن اكتمال شهوة الجسد، لا يطفئ شهوة الروح.

دعنى ألقاك، حين تزهد النساء المجربات، ويبدأ فيك التوق، إلى فتاة نحيلة التجارب، لا تريد إلا أن تكون أما حانية، تمنحك دون قيد، أو شرط، الحب، والبيت، والأمان.

دعنى أدير لك الأغنيات، التى تثير الدموع فى عينيك، وبلل أحضانى بالبكاء.

دعنى أغزل من أحزانك وسادة تريح عليها، عمرك الآتى. نعم على استعداد أنا، لأن أفعل، كل هذا وأكثر. ومع ذلك، أطلب منك، الخروج من دمى.

أرجوك، اخرج من دمى.

لم أعد أحتمل، كل تلك التناقضات بيننا.

لم أعد أحتملنا معا.

كل شىء يقربنا، وكل شىء يبعدنا..

أشتاق إليك بكل عنفوانى، وأنفر منك بكل كيانى.. مؤمنة بك إلى درجة الهذيان، وكافرة بك إلى حد الجنون.. أزهو بك على ملامحى، وألفظك من عيونى.. أشعر بالامتنان لـ زمان جمعنى بك، ولا أغفر اليوم الذى رأيتك فيه..

فى الليل، أنت نديم أحلامى، ويقظة النهار تتوب عنك. منحتنى الدهشة المتأججة، وأخذت راحة القلب والبال.. معك، عرفت كيف للسماء ألا تسعنى من الفرح، وكيف للأرض أن تبتلعنى من الندم..

لم تعد بى طاقة، لأحتمل هذا الضغط العاطفى، والعصبى. أرجوك، من أجلك، ومن أجل فتاة نحيلة التجارب، لم تفكر يوما فى ايذائك.. اخرج من دمى.

أسبوع من عمرى

السبت

أصحو من نومى مبعثرة اليقظة، متعثرة الأحلام. الشمس تنبئ بـ صباح مختال الزرقة. والسحاب يرسل إلى قلبى الموصد بشائر ود وأسرار. أواصل الاستيقاظ كل صباح، وأنفاسى على غير وفاق مع الأتربة، والهواء وسخف الأسئلة. «لا جديد تحت الشمس».. هذا ما يفزعنى. ولو هناك «الجديد» فـ كيف أدركه ونوافذ الادراك مغلقة بالصدأ، وخيبة الرجاء؟

النساء حولى يثرثرن عن الزواج، والمسلسلات. وشد الوجه، وارخاء الكرامة.

يفوح من الرجال، عطر ذكورى يصيبنى بالغثيان. مرعبة هى غربتى بين الرجال، مرعبة أكثر غربتى بين النساء.

لكننى أتعلم كيف أوجه لهم تحية الصباح، دون أن أفقد صوابى.

وكـيف لا شيء يرضـينى، وأظل أثنى على شـروق الشـمس كل صباح، وأمتدح نعمة بقائى على قيد الحياة.

الأحد

واضحة أنا مثل حكمة الورد، وحماقة العالم، والشوق فى عيون العشاق.

أفكارى أنثرها فى الهواء. وعلى أغصان الشجر، تسكن مشاعرى.

حيـاتى كـتاب مـفتوح مـقروء على الملأ. لكن الناس أحـبار سـرية متحركة، يملأون مساحات الأرض.

اكتشفت أن البشر يغفرون أى شىء، إلا خطيئة الوضوح. اليوم عبر الهـاتف قـال لـى: «ألا تعـرفين أن وضـوحك هذا السـاطع جـدا، هو مايجعلك تستعصين على الفهم؟»

قلت : «لماذا تريد أن تفـهـمنى؟ لماذا تريد اختـصـارى إلى مـعادلة رياضية قابلة للفهم أو عدم الفهم؟»

يسألنى:«هل هناك عاطفة بدون فهم؟»

أقول: «الفهم يأتى بعد الحب».

يقول: «الحب يأتى بعد الفهم أرجوكى كونى أقل وضوحا، لأفهمك بعض الشىء لبعض الوقت». أتركه يذهب.

وأرجع أنا إلى وحـدتى، لأكتب صـفحـة جـديدة، فى كـتاب حـياتى المفعمة أسراره بالضياء.

الاثنين:

أحـزم حـقـائب الملل، أحـمل تساؤلات لا تمن بالجـواب. أفـتح باب

الأحلام، وأشد الرحال إلى أرض مجهولة العنوان، لا زاد لى، إلا بعض من ماء، وتأمل، وغناء.

أحيا فى مدينة، لا تغير لغتها، وهواءها، وإيقاع أشجانها على وجه القمر.

أصحو كل صباح، مهيأة لـ بعث جديد، ووطــن جــديـد، ولا أجد إلا الجدران العتيقة، تحجب أنفاسى، والثوب القديم رغما عنى يرتدينى.

مأساة كل صباح هى أن تكون الحياة فى قلبى، أكبر من أن تسعها الحياة خارجى.

أعــد نــفــسى للسفر، أعرف مصيرى، ومنتهى أمرى. ولا أملك إلا معاودة الرحيل.

فى هذه الرحلة، متكررة اليأس، والتعب، أعثر على شىء ما، يعنينى كثيرا ألا أفقده.

الثلاثاء

يحدث أحيانا أن اشتاق إلى كلمات لم تقلها. يحدث أحيانا، أن أحن إلى قلبك المتوهج الضائع فى الفضاء. وأن تعبر ذاكرتى أمسيات، أخذتنا خارج الخطوط والمدارات.

أحيانا، أحدث السحاب، والنيل، والأشجار، عــن زمان كنا بـه بزمان واحد. وعن ورود حمراء، كانت تأتينى معك فى المساء.

يحدث أحيانا، أن أضبط شفتى تعانقان اسمك، حين تكون النية أن أنادى رجلا غيرك.

أحيانا، أبكى دون بكاء، حين أستمع إلى أغنيات جمعت شملنا المتمرد.

أحيانا أعرف مذاق الموت، وأنا بعد مقيدة ضمن الأحياء، حين أكتب ولا تقرأنى عيناك.

فى بعض الأحيان، أخون نفسى، حين أتصور لك بديلا، يمنحنى عنفوان الدهشة، وسحر الألم. أحيانا، أفقد عقلى، وبعضا من كرامتى، حين أكاد أقسم بـ أنك فرحتى الوحيدة.

رغم كل هذه الأحيان، التى تحدث أحيانا، لم أفكر فى الرجوع إليك.

الأربعاء

سافرت إلى «البحر» علّنى على ايقاعات المد والجزر أهتدى أين المستقر.

يعاتبنى «البحر» لم البعاد الطويل، ما الذى أخرك عنى؟ ولا جواب عندى إلا صمت الأشواق.

يزفنى «البحر» إليه، على بساط من ماء. كم انتظرت هذا الزفاف، الذى يعيد إلىّ ذاكرة الموج، ورشاقة الأسماك.

يحكى «البحر» عن أحزانه. أبوح بـ جنونى وأحلامى المستحيلة.

تطهرنى ملوحته من آثام اقترفتها بـ خيالى العذب. يفتح «البحر» شهيتى لـ بهجة غامضة.

أجمل ما فى علاقتنا أنا و«البحر»، أننا متشابهان فى المزاج المتقلب،

لا وعود بيننا. نعيش معا لحظة الغرق، والغد دائما قصة أخرى، ليست تؤرقنا.

بعد لقاء الماء، أعود من حيث أتيت، إلى أرض لا تعطينى إلا الظمأ، والجفاف.

الخميس

أنظر فى المرآة، تصفعنى تجاعيد لا أدرى كيف عرفت عنوانى. ليس من العدل، أن أستضيف على ملامحى، زمنا لم أعشه.

يا من أحببته فى خيالى، كم تمنيت لقياك، قبل أن تغزونى تجاعيد لا ضمير لها. كم تمنيت أن تمتد يدك، تلمسنى فى حنان، قبل زمن كاذب يعربد على وجهى.

أنظر فى المرآة، أخاف أن أتحسس بشرتى النائمة على جلدى. لست أنا، تلك التى تخرج من المرآة إلى الدنيا.

من أين يأتى الزمن، بـ جرأته، ويفعل بـ ملامحنا ما يشاء؟ لا أحد يحاسبه أو يسائله.

هل أنت حمقاء؟ كيف تريدين تحدى الزمن؟ إنها قضية خاسرة. هذا كلام الناس.

أما أنا، فلا تستهوينى إلا القضايا الخاسرة. ما جدوى قضية رابحة؟ وما المتعة فى الانشغال، بـ قضية مضمونة العاقبة؟

الجمعة

مع كل فجر، أولد من جديد، مثل قطرة ندى. طازجة أبعث مثل

أنغام الكون المنشقة عن الليل. أبدأ مع النهار، صفحة بيضاء، لا تاريخ لها، ولا غد آت يثير شهوة الانتظار.

كل يوم، أنا امرأة جديدة، تفتح مسامها لـ جموح الشمس، وعربدة، الأشجان. امرأة لها قلب بكر، لم يخفق للعشق، وجسد فقد ذاكرة الاشتهاء.

هكذا أنا بالفطرة، غير قابلة للتكرار. أحس أننى خائنة، لو قرأت الكتاب الواحد مرتين، أو أحببت الرجل الواحد مرتين.

تعلمنى الحياة كل لحظة، أنها أقصر مما تسمح بالنزول مرتين فى النهر الواحد.

ولا أدرى لماذا يخاف الناس، من امرأة تولد من جديد مع الصباح؟

لماذا يريدوننى أسيرة زمن، فات أوانه؟ لماذا يطالبوننى بالوفاء، لـ يوم لم يعد لى؟

أنا وأنت والسهر

ليست

هذه هى الدنيا، التى أعرفها. وليست هذه هى المرأة، سكنتنى طوال العمر.

لا الهواء، هو الهواء . لا الأنغام، هى الأنغام. ولا هذا هو الحنان المعهود، من انسكاب الغروب، فى أحضان «النيل».

الليلة، أحتاج شيئاً هائلا، يؤكد لى، أنى مازلت، على قيد الحياة، وأن ما يحدث لى، ليس حلما شاغلنى، ولكن حقيقة، ناعمة الملمس، والعبير.

الليلة، غير كل الليالى الماضيات.

لم أعد أحس، أن الأشياء حولى تضطهدنى. لا أشعر، بـ العداء بينى، وبين الكتب المكدسة على أرفف وحدتى.

الليلة، كل نسمة هواء، موحية بالود، والخير، والشعر. كل رشفة

تأمل، تمنحنى سراً من أسرار الكون. الليلة، غير كل الليالى الماضيات.

ممتلئة بـ اشتهائى لكل ما ينبض بـ الحياة. لأول مرة، أعرف للتنهيد طعماً غير الشجن. لأول مرة، منذ أزمنة موغلة فى القدم، أدرك الحد الفاصل، بين أن «أكتب»، وأن «أعشق». الليلة، لأول مرة منذ سنوات لا أجرؤ، على حسابها، أستعيد مذاق رعشة القلب، حين ينتظر السهر، مع رجل، تنتشى الروح، لـ رقته. الليلة أقطع الخيط الرفيع بين اشتياقى لـ رجل زائد الوسامة، واستضافتى له، فى محرابى الزاهد فى دنيا الناس.

أعترف أن الوسامة فى الرجل، نقطة ضعفى الكبرى. قد أتحمل الجلوس مع رجل، لا تعجبنى أفكاره، أو طباعه. لكننى عاجزة تماما، عن تحمل رجل، لا تعجبنى ملامحه، ولا تربكنى رشاقة قوامه.

حين فكرت فى الأمر، لم أجدنى متجنية، وإنما على حق. فـ الرجل حر، فى أفكاره التى يحملها داخل رأسه. لكنه بالتأكيد، ليس حراً، فى شكله الخارجى، الذى يواجهنى به. والأفكار يمكنها دائما أن تتغير، وتتجمل. ولكن ماذا عساى فاعلة، مع رجل، سلس المضمون، متعثر الشكل؟

الليلة، أنا أمام حضور طاغ، لـ درجة من الوسامة، ظننتها من المحال.

الليلة، وما أحلى الليلة، أنا مع رجل حقيقى، من لحم، ودم، وأعصاب. ولست مع رجل خرافى أصنعه على الورق، أو أخلقه فى المنام.

الليلة، غير كل الليالى الماضيات.

كيف اخترقت عزلة أيامى، وجعلت الحلم بـ لقائك، صلاتى الصامتة، أقيمها، كلما مسّنى صوتك العذاب، عبر الهاتف؟

كيف غيرتنى، من امرأة فارغة الصبر، إلى امرأة ممتلئة بـ الانتظار؟

كيف أقنعتنى بـ السهر معك الليلة، وأنا التى تنام مبكراً، وتصحو مع بدايات خيوط الشمس؟

كيف الليلة، أدعوك إلى أسرارى، وارتعاشات الحياء بيننا، تحجب عنى لون عينيك؟

كيف دفعتنى إلى أن أترك الكتابة بعض الوقت، لكى أعد لك العشاء؟

قبلك، لم يحدث أبدا، أنى اخترت سهرة مع رجل، بدلا من سهرة مع القلم.

قبلك، لم يحدث أبدا، أنى اشتريت ثوبا جديداً، من أجل الاحتفاء بـ رجل.

لم يحدث أبدا إلامعك، إحساسى بالامتنان لـ دنيا ارادتنى امرأة.

معك فقط، على استعداد أنا، للتنازل عن يقينى، عشت به العمر الماضى، أنى أوتيت موهبة نادرة، أحسد عليها، فى التقاط الرجل الخطأ.

«أنت»، صالحتنى على اختياراتى المضطربة من الرجال..

«أنت»، أخيرا، الأنشودة التى لا تخدش صوتى..

«أنت»، أخيراً، دقة القلب التى على صواب.

أتوق إليك، وأرغب فى اختصار الزمن. لكن لانتظارك، نشوة نارية، تسرى فى دمى. أود البقاء فى هذا النعيم، يحرقنى، فأتطهر من اشتياقى الزائف لـ غيرك.

أنا أنتظرك، الحياة إذن أصبحت قابلة للاحتمال..

أنا أنتظرك، للزمان إذن عطاياه السخية..

أنا أنتظرك، إذن أنا موجودة..

يسألنى الثوب الجديد هل تحب اللون الأسود..

نسيت أن أسألك عن ألوانك المفضلة. لكننى على يقين، لا أدرى، من أين جاءنى، أنك تعشق اللون الأسود، وأنك الليلة بالتحديد، تريد أن تراه ممتزجا، بـ لهفتى عليك.

تسألنى الزهور المتناثرة فى الأركان، ألف سؤال عنك، وعنى وعن ليلتنا. كيف لى أن أهدئ من حيرتها، وأنا أكثر منها، حائرة. وكيف أعطى نفسى حق تفسير مالا أملكه وحدى؟

أستحضر إلى خلوتى، دخولك حياتى، فـ أندهش من حكمة القدر.

ما الذى ألقانى ذات مساء، على أرضك؟

«أنت» و «أنا»، معا فى هذا العالم؟ هذا جنون. كل شىء ضدنا. حواجز الخوف، أزمنة التاريخ، الناس، والعمر القصير.

لاشىء معنا، إلا أوراق الشجر، سحر الغناء، رغبة تكسر منطق

الأشياء وحنين الشتاء إلى دفء يديك. لا شيء معنا، إلا أمل في قسمة عادلة من الفرح، و «عشم»، في حكاية عشق، لا يكررها الزمان.

لحظات وأراك.

كل شيء جاهز، لاستقبال أحلى ضيف..

لحظات وأراك،

ما أجمل الدنيا معك.

لحظات وأراك،

مهيأة تماما لك..

لحظات وأراك..

هيا اطرق الباب..

لحظات وأراك،

هيا اظهر في الأفق..

لحظات وأراك،

أيحتمل الكون لقاءنا؟

لحظات، وأراك،

أتتحمل كل هذا التوق؟..

لحظات، وأراك،

وهل أتحمل أنا، أول كلمة من شفتيك؟..

لحظات، وأراك..

يرن الهاتف، يقول:«عفوا، لن أستطيع المجىء الليلة»..

سقطتُ فى هوة عميقة.

نزف على أوتار الغياب

متناثرة

بين أوراقى مختبئة من تطفل العيون، وصخب الألسنة، أتشبث بـ الهواء البارد، يطفئ اشتياقى النازف إليك.

منذ أن أرتشفت غموض وسامتك، سخية المرارة، آسرة العذوبة، وأنا مبعثرة فى الفضاء. لا مدار يحتوينى، ولا كوكب يغرينى بالبقاء.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

لا أصدق أنك فى حياتى، منذ شهور قليلة. كاذبة كل دفاتر الزمان. أنت الحبيب السرمدى، لا بدء لك، ولا ختام.

أتلفت حولى. المكان موحش بدون خطوتك، شامخة الحنين للمحال. يصفعنى غيابك. أسأل عنك الهواء، والأشجار، وشمس الشتاء خجولة الدفء.

لا تحرجنى أكثر من هذا الحد. كيف أقول بـ غيابك، ورائحتك تملأ

المكان، نبرات صوتك نائمة على أغصان الشجر؟ كيف أراك فى كل شئ، ولست تلتحم بـ عيونى؟

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

أضع فى فنجان قهوتى الخالى من السكر، نزفى الصامت، وحرمانى منك. وتفاجئنى الرشفات بـ حلاوة المذاق.

أوحشنى قوامك الرشيق، المتخم بـ تردد الاقتراب. أفتقد لهفة روحى، ورعشة جسدى، حين تهل من بعيد، شعاعا يخطف القلب، والأبصار. فى صمت نتلاقى، وفى صمت نفترق لـ ثوان معدودات. أتساءل بينى وبين نفسى، ترى هل قرأ كلماتى؟ هل أحس بـ مشاعرى؟

وأوحشتنى «خطوتك». منذ زمن بعيد، وأنا أفتش عن «خطوتك». كيف ضبطها بـ هذا القدر من الدقة، لتجئ تماما كما تمنيت. «خطوتك»، هى الجرعة المثالية التى أحبها من التأنى والتهور، الرقى والتوحش، الجرأة والحياء، الورع والعربدة. «خطوتك» توليفة عبقرية من النهم والاستغناء، الجدية والمرح، التسامح والغضب، الشجن والفرح، الهدوء والصخب. «خطوتك» حركة متوازنة من التوتر والاسترخاء، التواضع والغرور، التعقل والجنون. «خطوتك»، من بعيد أميزها من بين ملايين الخطوات. «خطوتك»، شمس أنتظر شروقها لأعلن يوما جديداً فى عمرى. من «خطوتك» أعرف مصيرى معك، هل ستلقى التحية؟ أم تتجاهلنى؟ من «خطوتك» أعرف هل أنت مكتئب، أم مبتهج؟ من «خطوتك» أتنبأ، أهو يوم للأقنعة، والقيود، أم يوم للحرية. «خطوتك» منارتى، ودليلى إليك.. أين ذهبت بها؟؟

«خطوتك» تشبه خطوتى، تصور؟ جبهتك العريضة مسافرة للسماء،

ثم ترسل نظرات متكررة إلى الأرض، وكأنك ترسل حكمتك للبشر. إلى السماء نتطلع ، لكن جذورنا مثل الشجر ثابتة فى الأرض.

أين «خطوتك» الأربعة الأيام الماضية؟ بـ حنينى اليائس، أشعل سيجارة. قبلك لم أكن على وصال مع تلك الأصابع التى تحرق العمر. بعدك، كل شيء مباح. بعدك، الصحة والمرض، عندى سيان. لن تؤذينى سيجارة مشتعلة، قدر إيذاء عواطفك المطفأة.

منذ أن عرفتك، وأنا أقاوم نوبات البكاء. أعرف أن البكاء سيخلصنى منك. هو دائما بداية النهاية. أرجوك، لا تضطرنى، لأن أنهيك فى نوبة بكاء.

بالأمس، شاهدت فيلما، يحكى كيف تخدعنا ظواهر الأمور. خلال الأحداث، كانت تتكرر عبارة «الأشياء ليست دائما كما تبدو عليه». منحنى الفيلم بعض التفاؤل. إذا كانت الأشياء ليست دائما كما تبدو عليه، فقد تكون لا مبالاتك...

وقد يكون صمتك ... وأخاف أن أتمادى فى التفاؤل.

«ليست الأشياء دائما كما تبدو عليه».. ورقة أخيرة غير مؤكدة، أراهن عليها.

الطقس اليوم بارد جداً، على غير المعتاد. ولهفتى عليك ساخنة جداً على غير المعتاد. الرياح تعصف بـ الأمنيات، أوراق الشجر، والذكريات. إلا «أنت»، لا شيء يستطيع انتزاعك منى.

حتى صمتك الزاعق فى وجهى كل صباح، يجتاح كبريائى، يطيح بـ وقارى، يلقى أنوثتى أرضا. لكنه لايقتلعك من جذورك داخلى.

«أنت»، ممتــد على طول قــامــتى، فـ كـــيف ينالك شىء، دون أن يخترقنى؟

تجىء امرأة مصبوغة الشعر، تستأذن فى الجلوس معى. وقبل أن تعرف الرد، أجدها بـ جانبى.

أتأمل هذه المرأة الشبيهة بـ نساء كثيرات ألتقى بهن. تساءلت لماذا عجزت دائما عن مصادقتها؟ لماذا تنقطع كل الخيوط بينى، وبينها؟ أدركت أن المشكلة ليست فى شعرها الأصفر، ولكن فى شخصيتها التى لا لون لها. هى مصبوغة الشعر، ومصبوغة العقل، ومصبوغة الإحساس. أدركت أن الحائل بيننا، ليس حقيبتها الممتلئة المقتحمة خلوتى من حين لآخر. ولكن فى روحها الفارغة المتراجعة كل حين. أستمع إلى أحاديثها المكررة. تتكلم نصف كلامها بالانجليزية، والفرنسية، فـ أشعر بـ الغثيان.

وخالجنى خاطر. ربما كنت تريد امرأة مثلها، ذات شعر أصفر، أو أحمر. امرأة تحمل الجنسية المصرية، ولا تتكلم العربية. إن كان هذا هو سبب لا مبالاتك، فلا أمل لى أنا المرأة وارثة الشعر الأبيض المبكر، وكان قدرها عشق اللغة العربية.

بخلت على قلبى بـ قليل من الود. تعاملت معى كأننى خطيئة تخاف أن تدنسك، ما أروع خطيئتى. طهرتنى من فضائل النساء المفتعلة.

وما أروعك حين يمسك الخوف. تصرفاتك اللامبالية، أحبها. هى منك، تحمل رائحتك، وتأخذ بـ يدى إلى أعماق روحك. كيف لا تطيب لى، وإن كانت ضدى؟ استمر فى لا مبالاتك.. لن تفلح معى كل

محاولاتك. إننى ممتلئة بك حتى الرمق الأخير. لا أحد سواك، على البعد، وفى صمت، يحركنى، يفتتنى، يعيد تركيبى، وتشكيلى.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

معك أعيش أحلى التناقضات. فى النهار، أصب عليك لعناتى، أتبرأ من أشواقى إليك، أعلن للشمس أنى قد فرغت منك، وأزهو للأشجار أننى بدونك مثمرة. فى النهار، تذبل شفتاك، وأغرد احتفاء بـ رحيلك عن دمى. أتخيل أنى أراك، وتبقى ملامحى على وجهى. وحين يهبط الليل، تصعد معك روحى لأعالى العشق، والأشواق. حين يأتى المساء، أعتذر لك، وإلى دمى أعيدك عفياً، شهياً. فى الليل أغتسل من تمردى عليك، وإلى خمر شفتيك أجرى لاهثة.

منذ يومين، عشت أكثر التناقضات حيرة وارباكا. صحوت من النوم وقد قررت أن ألفظك من حياتى. حسم قلبى أمره على نسيانك بكل حلاوتك، ومرارتك. لا أدرى، كيف تعاطف معى القدر، وأرسل لى فى اليوم نفسه، رجلا لا غبار عليه. هو رجل لا يخلو من وسامة ما، فنان، يكره القيود، وتقاليد الموتى التى تسجن روح الأحياء. فاجأنى أنه يشبهنى فى كثير من طباعى. له أفكارى عن الفن، والحرية، والعدل بين البشر. أعطانى رقم هاتفه، واهتمامه الرقيق.

كان القدر رحيما معى، وأرسل رجلا يفتح لى نوافذ النسيان. لكننى كنت قاسية مع نفسى. أغلقتها، تراجعت عن القرار، وعدت راضية، أختنق بـ هواك. ألديك تفسير لهذه التناقضات؟

فى الطريق، أقابل أحد الأشخاص. يلقى على مسامعى كل هموم العالم، ومساوئ البشر. لم أنتبه إلى حديثه، إلا حينما فاجأنى بالسؤال

عنك. لماذا اختارنى أنا؟ ألهذا الحد، «أنت» تطل من عيونى، ترقد على أصابعى، وتمتزج بـ خصلات شعرى؟

أتخيلك مندهشا من كلامى وقد تسألنى: «ما هذا الفيض من المشاعر؟ أنت لا تعرفينى. قد أكون ممتلئا بـ العيوب كما أننى لم أشجعك».

إذا كان هذا هو حالى معك، وأنت لم تشجعنى، فما مصيرى لو استجبت لـ مشاعرى؟

ما أعرفه أحبه فيك. أحب أكثر مالا أعرفه. كن كما تريد، خيراً، أو كل الشرور. كن جنة، أو ناراً. صافيا أو ملبداً بالغيوم. عشقتك وانتهى أمرى. ألا تدرك المأزق الذى أوقعتنى فيه دون قصد منك؟

حتى اسمك غير المألوف بين أسماء الرجال، أصبح تعويذتى، أتلوها ليلا، ونهاراً، لأشعر بـ ألفة مع نفسى.

حتى حرف «الراء» غير المكتمل على شفتيك، أحببته.

كم أغار من حرف «الراء» غير المكتمل على شفتيك. ورغم غيرتى منه، أصبح اللحن الذى يدوخنى. حتى «أصابعك»، لم ألمحها إلا مرة واحدة على قرب. هى ضالتى المنشودة منذ زمن. هى لوحة فنية غير مسبوقة.

قد أكون أنا على العكس، ضد كل ما تهوى فى النساء. لا يهمنى. أنا هى أنا. ولست منشغلة، هل أثرت إعجابك أم لا. ولا يلح بـ ذهنى الإيقاع بك.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

سؤال أودعه بين يدى «عرافة»، أخذتنى إليها إحدى صديقاتى. لا أصدق أننى أستجيب لـ خرافات طالما سخرت منها. تهمس لى صديقتى: «لن تخسرى شيئا، اعتبرى الأمر مجرد تسلية».

كيف غيرتنى إلى درجة أننى أطلب العون عليك، من امرأة لا حول لها ولا قوة؟ ولو على سبيل التسلية.

وكيف لا تغيرنى؟ الحب هو ما يثير فينا الفوضى، والارتباك. ما جدوى عاطفة، تبقى عادات ألفناها، ولا تهز معتقدات ورثناها؟

آخر شىء أحتاج إليه، رجل لا يشبه العاصفة، يمر على أيامى مثل نسمة هواء.

تجلس «العرافة» أمامى. تلتقط من حيرتى خيوطاً تنسج بها كلمات عن مذلة العشق، ونار الأشواق. ترمقنى نظراتها بـ شىء من الريبة، وعدم الارتياح.

تسألنى عنك أشياء كثيرة. قلت: «لا أعرف عنه إلا الاسم، ومذاق الجرح، والحنين».

تزداد نظراتها ارتيابا . تتمتم بـ كلام غير مفهوم.. تنثر رائحة البخور.. تغمض عينيها.. تحرك يديها فى الهواء.. وتصرخ مخاطبة غريب الاسماء، وترحل عيناها عن جلستنا.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

تعود «العرافة» من شرودها وتعطينى الجواب : «فى مكان بعيد، شبه مهجور، لا أنصحك بـ الذهاب إليه، كيف تورطت يا ابنتى مع هذا الرجل؟ فى الأفق رجال كثيرون رهن اشارتك، لماذا هو؟ لا خير يرجى منه، حرام عليك قلبك يا ابنتى».

حتى «العرافة» التى تذهب حيرة النساء العاشقات، أصابتها سيرتك بـ الحيرة. حتى «العرافة» المرتابة فى أمرى، لا أعرفها ولا تعرفنى، تشفق على حالى، وتخاف على قلبى منك.

كـــل شـــىء، ولـــه نهاية. الـفـرح، والأحزان. كل شىء وله آخر، إلا «أنت». يا ربى، متى آخر هذا الرجل؟

«دوام الحال من المحال».... إلا حالى معك، مثل ملامحى. كل يوم أغسل وجهى، تفتر ملامحى، تذوب، تضيع، و «أنت» باق.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

لا تظن أن رؤياك من بعيد، كلها خير. إنها عـذاب يمتطى جـسد الفرحـة، اشراقة أمل تخـتبئ فى سحـابات يائسة، وهى الغرق الملتف حول طوق نجاة.

رؤياك من بعيد، تقتلنى. لكنها لا تؤذيك أنت. لماذا حرمتنى منها؟ أيرضى القتيل، ويأبى القاتل؟

رؤياك من بعـيـد، أصـبـحت إحـدى عـاداتى، التى تحـبـبنى فى الاستيقاظ كل يوم. ماذا أقول لـ عيونى التى اعتادت رؤياك، لو حرمتها أن تراك؟ تلك النظرة بيننا من بعيد، تطلق من الأسر، آخـر عصــفور بـ قلبى، يشدو للعشق.

ياربى، خـذ عـمرى الآتى، وأعطنى هذا الرجل. أحـتـاج مـعـجـزة كونية، لأنعم بالوصال معه. نسيت أن عصر المعجزات قد فات، وأن زمن رجـال مـثله قـد مـضى. تحـدث الزلازل، والبـراكين، تغيـر وجـه الدنيا، تميت البشر، تحيل كـــل شـــىء إلـــى عدم، وذكرى وتـــراب.

إلا «أنت» حدوثك محال. دعني ياربى، أصحو من نومى ذات صباح، وقد شفيت من هذا الرجل، مرة وإلى الأبد.

لا أدرى من أين ينساب صوت أم كلثوم، لـ يزيد أشجانى. كأنها عالمة بـ حالى، كأن أحمد رامى، كتب هذه الكلمات، من أجلى، وكأن لحن السنباطى، ايقاعات روحى النازفة.. لماذا أسمع هذه الأغنية الآن، أهى مؤامرة أرسلها القدر، أم تراها برقية عزاء.

تشدو أم كلثوم:

«عودت عينى على رؤياك

وقلبى سلم لك أمرى

أشوف هنا عينيٍّ

فى نظرتك ليّا

والقى نعيم قلبى

يوم ما التقيك جنبى

وإن مر يوم من غير رؤياك

ما ينحسبش من عمرى»

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

أقود سيارتى إلى حمام «السونا». ذهبت، علنى أفقد الزائد منك، ومن الأوهام.

تسألنى امرأة لا أعرفها تشاركنى الحجرة الساخنة : «هل تأتين كل يوم؟» أقـول «نعم، كل يوم» تحـذرنى: «كل يوم خطر على قلبك». أرد

شاردة: «إنه قلبي الذي أود أن أحرقه، وأدمره. إنه مأساتي النابضة التي أحملها بين ضلوعي». تتركني وفي عينيها نظرة متشككة في قواي العقلية.

أدمنت حمام «السونا»، لكنني بـ سببك أصبحت أكرهه، وأحسه عبئا على جلدي. حين أخرج منه، منتعشة المسام، ولا أرتمي على شفتيك، يغتالني شعور بالعبث، وأحس بالدوار. حين يبعثني حمام «السونا»، كأنني في أول يوم للميلاد، ولا تلمسني يداك، أشتهي الموت.

ويسألني «الشتاء» : «كيف في موسمي تتحملين الماء البارد على جسدك»؟ فكرت قليلا، وعرفت أن الفضل يرجع إليك. بعد أن تحملت الصقيع المسافر بيننا، كيف لا أحتمل برودة الماء في الشتاء؟ برودة العالم كلها أكثر دفئا من قلبك، وشتاءات الدنيا أحن على جسدي منك.

مع كل قطرة ماء بارد على جسدي، أردد في همس كالصراخ: «لا شيء أكثر قسوة منك». بعدها أجدني في صرخة أقرب للهمس أردد: «ليست الأشياء دائما كما تبدو عليه».

أحس أنك انتقام، استجاب لـ رغبة الرجال الذين أحبوني، ولم أعرهم انتباها. أنت الآخذ بـ ثأر كل رجل، أهداني قلبه، ولم أرد التحية، حتى بـ كلمة شكر.

أتعاقبني بـ الغياب، لأنني اخترتك من بين كل الرجال الذين يروحون، ويجيئون، ولست أراهم؟ أهذا جزائي لأنني بـ اسمك أفتتح موسم العشق بـ قلبي؟

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

أوصلنى غيابك إلى مشارف الجنون. اظهر واكسب فى قلبى جزيل الثواب. أنت الآمر الناهى بـ وجدانى، فلا تستدرجنى للكفر بك.

أحتاج إليك، لا رفاهية، ولكن لأبقى متوهجة بـ الكتابة، غاضبة على أحوال العالم. اهتمامك يجعلنى أصمد أمام الأحـزان المتربصة بـ أيامى. أحتاج أن أشعر أننى امرأة ذات مذاق خاص. أحتاج لأن أكون «حبيبتك»، لأبقى متفردة الخطايا، استثنائية الفضيلة. أحتاج لأن أراك، حتى أرانى.

تفكيرى بـ أننى ربما أصبح «حبيبتك»، جعلنى أهتم أكثر بـ نفسى، وحياتى. أكثرت من ممارسة الرياضة، والاستماع إلى الموسيقى. أتأمل فى هدوء عزف الشتاء على الكون. أحاول ألا أفعل، إلا ما تشتهيه نفسى. إن لقب «حبيبتك»، يفرض علىّ مسئولية هائلة. «حبيبتك» لابد أن تكون رشيقة الفكر، والقوام، لا امرأة أخرى تشبهها، أو تنافسها.

«تلك التحية الخاصة»، التى أرسلتها لى، كم أسعدتنى، هى دليلى الوحيد على وصول كلماتى إليك. كلما هاجمتنى الشكوك، كلما تماديت فى تجاهلك، أجرى إليها، أتشبث بها، فأطمئن. «تلك التحية الخاصة»، كم كانت دافئة، أمطرتنى بالوعود، وتركتنى وحدى تائهة فى أرض الجفاف. «تلك التحية الخاصة، هى كل ما أملك من أمل، أواجه به معركتى اليائسة معك.

تزورنى إحدى صديقاتى العصريات جداً. تسألنى دهشتها الساخرة: «هل تدخلين القرن الواحد والعشرين، وأنت امرأة قرون مضى أوانها؟ أفيقى من هذه الرومانسية التى لا تمنحك شيئاً إلا العذاب. احسبى مشاعرك، ولا تعطيها إلا لمن يستطيع العطاء».

عفوا أيتها الصديقة. أنا لست امرأة عصرية، وأستميحك عذراً أيها القرن الواحد والعشرين. أنا أخلق العصر الذى أعيش فيه، ولست أنتمى لـ زمان لا أشارك فى رسم معالمه.

لا أستطيع أن أراهن بـ قلبى فى قاعة «المزادات».

أسلمه لمن يعطيه أكثر. لم أضارب يوما فى «بورصة» العواطف، ولم أكن يوما احدى العميلات فى «سوق» المشاعر.

لى قلب صعب الإرضاء، لا يعجبه أحد، ولا يستهويه أى رجل كان. حين يدق قلبى، يكون الأمر حادثا تاريخيا فريداً، أعكف على دراسته.

حين أسمع دقات قلبى، أحتضنها، أحتفى بها، ولا انشغل بـ الأخذ.

أؤمن بـ المثل القائل «افعل الخير والقه البحر». العشق عندى هو ذروة الخير. أنا أعشق وألقى مشاعرى البحر. إذا جاءنى «المد»، أكون فى حالة امتنان، وإذا كان «الجزر» قسمتى، أواصل فى استمتاع نزهتى على رمال العشق.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

يأتى مساء طويل الأرق. كل شىء فى البيت، يسألنى عنك، رغم أنك لم تزرنى. ماذا سيحدث فى الكون، لو كنت تطرق بابى؟

يرن الهاتف.. أنتفض، أجرى، أتعثر فى الأشياء، ويخرسنى الصوت على الطرف الآخر. أدرك أنك لا تعرف رقم هاتفى. لكننى لـ سبب ما، أظل أتوقعك. لـ سبب ما، أبقى على انتظار أن يعانق صوتك عبر الهواء صوتى.

ولم لا؟ حدث كثيراً، أن نرتدى اللون نفسه، فى أيام معينة. مرة

يجمعنا لون «السماء» حين تكون فى ذروة الصفاء. مرة يجمعنا لون «النبيذ» ذو الحمرة الداكنة. ويوم أن أرسلت لى التحية الخاصة، كان لون «القهوة» رسولا بيننا.

تفاءلت بـ هذه المصادفات. اعتبرتها اشارات من القدر، تبارك ماهو محتجب بيننا، وغير مألوف للبشر. ليس مستبعداً إذن أن تطلبنى، وأنت لا تعرف رقم هاتفى. مـا الجميل، فى رجل يتصل بى، وهو يعرف رقم هاتفى؟ كم طال انتظارى لـ رجل يفاجئنى صوته، وهو يجهل شفرة استحضارى عبر الأثير. أنت تعرف رقم أفراحى، وأشجانى، وذكريات المستقبل، فهل يصعب عليك معرفة رقم هاتفى؟

تآمرت ضدى، ولم أعاتبك. جزء يخاطبنى ساخراً: «يالك من ساذجة، واهمة، أتؤمنين بـ خرافة الحب من طرف واحد. هذا حب الروايات، والأغانى».

يجيب الجزء الآخر، المتواطئ معك: «ما الحياة إلا روايات وأغنيات. أنت روايتى أكتبها وأنزفها. وأنت أغنيتى أشدو بها، لأعثر على صوتى».

لم أخطط لـ حبك، ولم يكن فى نيتى الوقوع معك. لو الأمر بـ يدى، هل تتصور أن أختار، هذا الانتحار البطىء، اسمه «أنت»؟ لو خيرت، ترى أكنت أتشبث بـ هذا النزف اليومى اسمه «رؤياك»؟

حاولت أن أبقيك مجرد ملهم، يأخذ نصيبه من قصة أكتبها، أو قصتين، ويذهب لـ حال سبيله، مثل غيره. لكنك تمردت على الدور المسبق، الذى رسمته لك.

فوجئت بك تعبر واثقا المسافة الشائكة، بين «الإلهام»، و «العشق». دون استئذان، انتقلت من «الورق» إلى قلبى. ما ذنبى أنا؟ ذنبى الوحيد ربما، أننى باركت حركتك من حبر القلم إلى دمى.

«أنـت»، تهـمـنى إلـى درجة أتعفف معها من اعتبارك «مناسبة» أو «فرصة» للابداع، تزيد حكاياتى المكتوبة.

أين أنت الأربعة الأيام الماضية؟

مـساء آخـر، يرخى ستـائره على وحـدتى. أنزلق تحت الأغطيـة الثقيلة، علّها تمنحنى ما ينقصنى من دفء. بـ جـانبى كتاب يحمل عنوان «ولادة الموت» يؤنسنى حـتى يلفنى النوم. لكننى الليلة عـاجـزة عن التركيز. لا شىء يحضرنى إلا «غيابك».

ولست مؤهلة لـ قراءة أى شىء إلا صفحات من «اختفائك». أغفو، وتحت وسادتى حسرتى على شبابى الضائع، وعمرى المحسوب على أيامى.

يرن الهاتف. من يطلبنى فى هذه الليلة قارسة البرودة والملل. وبعد انتصاف الليل؟

يأتينى على الطرف الآخـر، صـوت صـديقـتى بقـول: «هل جـاءك الخير؟ ترددت فى إخبارك، والوقت متأخر. لكننى أعرف ما ينتابك من قلق، وحيرة. لقد كان فى المستشفى. يقولون شىء فى القلب.. .. والحالة غير مطمئنة.. ..»

لا أدرى كم من الوقت مضى، وأنا متجمدة فى مكانى.. ساعـة، سـاعـتين، دهراً من الزمـان؟ غـابت عنى ذاكـرة الأزمنة، وامـتطيت اللاوقت .

ماذا أفعل؟ لن أغفر لـ نفسى، أننى كنت أعاتبك على غيابك، بينما ترقد أنت بين الحياة، والموت.

أريد أن أكون بـ جانبك، أقاوم معك. هل يمكن أن تغدر بى، وتغادر الدنيا قبل أن أراك للمرة الأخيرة؟

لا أحتمل أنك ملقى على قارعة الرحيل، وحدك تقاوم انسدال الستار قبل الأوان. يؤلمنى أننى قد أفقدك، ولم تعرف أننى أحبك إلى درجة الهذيان. يخيفنى أن ترحل، دون أن تعرف، أننى عشقتك إلى حد، يتوجنى آخر عاشقات الزمان.

لأول مرة أنحنى تقديراً للموت. لم أكن أعرف أن له ذوقا رفيعا. بـ ذكاء، وحكمة يختار ضحاياه.

أيعقل رجل فى مثل جاذبيتك، أن يترك لحال سبيله على الأرض، يعبث بـ عواطف النساء. يعز من يهوى بالوصال، ويذل بالحرمان من يشاء؟

لا أفهم ماذا حدث لك، وما هى حال قلبك، لكننى أفهم سيكولوجية الموت.

«قلبك فى خطر».. يا لسخرية القدر. كيف القلب الذى أهدانى الأمان، يمسه خطر؟ كيف الرجل الذى صالحنى على الموت، تخاصمه الحياة؟ «أنت» أعدتنى للحياة، فهل من العدل أن تلتف حولك خيوط الموت؟

أيها الرجل الراقد بين الحياة، والموت، امنحنى قلبك المتعب، أضخ إليه حنينى، واشتهائى.

أيها الرجل ذو القلب المتوعك، خذ قلبى وعش به، إنى قد زهدت العيش . خذ قلبى، فقد أتعبتنى الحياة. بعدك، أختم الأجل وعشق الرجال، فما حاجتى إلى قلب ساكت الدقات؟ خذ قلبى، وافعل به ما يحلو لك. دعه ينزف، أو يشدو، أو يفرح. دعه يدق، أو يتوقف. إنه لك، فـ قرر مصيره كما تشاء. خذ قلبى، فهو لم يفرحنى يوما. هل تتصور أن يطاوعنى قلبى على البقاء وقلبك على سفر؟

كفى قلبك ما تحمله من ظمأ. كل ما يحتاج له قلبك، هو بعض الحب، وقليل من الحنان. إنها صرخة احتجاج يطلقها قلبك، أنا وحدى أسمعها.

أيها الرجل، معه أتوق إلى الفناء، خذ قلبى مغطى بالورود. عساه يعلمك كيف تحنو على امرأة انتزعت قلبها لتفتديك.

أيها الرجل ذو الحياء النادر، الممتلىء بـ عنفوان الشجن، لاترحل.... وابق معى.

رسالة تليفونية

أهى مصادفة، أننى أعشق السباحة، والبحر، ورشاقة الأسماك، وأن تكون أنت من برج مائى؟

أهى مصادفة، أن أكون أديبة، وفى عينيك، ترقد لآلئ الشعر؟

أهى مصادفة، أن يكون بينى، وبين الرقم (٧)، أسرار، وهمس، وأشجان، وأن يكون ميلادك، فى الشهر السابع؟ مساء الأمس، وصلتنى رسالتك التليفونية، التى سجلتها فى غيابى.

مباركة تلك اللحظة، التى امتدت فيها أصابعك إلى الهاتف، بعد عامين، من الصمت، والمرارة، والجحود، والارتباك.

أخيراً ، تذكرت أننى مازلت على قيد الحياة.

مقدس ذلك الالهام، الذى أوحى إليك، بأن تطلبنى، وتتحمل مخاطرة الاتصال.

نعم، فكل مرة اتصال بيننا، ولو عبر الأثير، مغامرة دخول إلى أرض ملغمة، مهجورة، معتمة، لا نعرف ماذا ستفعل بنا، وإلى أين سيكون مصيرنا.

كلمتنى، لتشكرنى على هديتى إليك، فى عيد ميلادك. مختصراً، كنت كعادتك.

تسع عشرة كلمة، بـ صوتك، من بينها، اسمى، عبر الهاتف.

لو تدرى، ماذا فعلت بى التسع عشرة كلمة، تلك. ألهذا الحد، هشة أنا، تجاه أى شيء منك؟ ألهذه الدرجة، قليلك، كاف، لأن يقلب كيانى؟

تسع عشرة كلمة، بـ صوتك، من بينها، اسمى، هزتنى، وألقت بى، إلى حافة الجنون اللذيذ.

جاءنى صوتك المختصر، بعد يوم مرهق، مكبل بأحزان أخفيها حتى عن نفسى.

لا أصدق ما أسمع. أعيد الرسالة مرات، ومرات. وفى كل مرة، أبكى وأضحك، وأصرخ، فى اللحظة نفسها. سجلت رسالتك التليفونية.

أخيراً، أصبح عندى دليل مادى، يثبت أن بيننا، شيئا ما.

ما هذا الهراء الذى أتحدث عنه.

أتحتاج الشمس، اثباتا أنها قادرة على الضياء؟ هل بعد الشدو، يُعقل الشك فى الكلام؟ وهل هناك دليل أجمل على الحركة، بعد زمان التحليق؟

أعذرنى.. فأنا أعيش معك، كل ماهو، لا معقول، وغير مفهوم، وليس قابلا للمغفرة.

أعذرنى .. فأنا مذعورة، من كل هذا الفرح، الممكن معك، المستحيل مع غيرك.

تسع عشرة كلمة بـ صوتك، من بينها اسمى، عبر الهاتف.

لو كنت أعرف أن هديتى، فى يوم ميلادك، ستكون فاتحة خير بيننا، وتخرجك من لا مبالاتك الطويلة، لأحضرت الدنيا كلها لك.

لو كنت أعرف أن رقم هاتفى، مازال بـ ذاكرتك، لملأت الأفق، بالورد، والأحلام، والغناء.

لو كنت أعرف، أن تذكرى ليوم ميلادك، سينتزع من صوتك، تلك النبرة الدافئة، عذبة الامتنان، لما تمردت عليك، فى صحوى، ومنامى.

تسع عشرة كلمة، بـ صوتك، من بينها اسمى، عبر الهاتف، أعادتنى إلى النصف الممتلئ من كأس حياتى. قفزت إلى ملامحى، نضارة منسجمة الرعشات. عرفت بعد نسيان طويل، المذاق الممتع، لرجوع مواسم المطر، والوداد. تسع عشرة كلمة بـ صوتك، من بينها اسمى، عبر الهاتف، حملتنى إلى كوكب خرافى النشوة.

أنا لست أنا، بعد رسالتك التليفونية.

فقدت الزائد من وزنى، وخوفى. تلاشت أوهامى، وقيودى. راحت عصبيتى التى يثيرها أهون سبب. ورحل الصداع، المحتل رأسى منذ زمن.

منحتنى الأمل، أنه على الأقل، مرة واحدة، كل عام، ستطلبنى.

هل تعرف، أنني رأيتك لأول مرة، منذ خمس سنوات، بعد عيد ميلادك، بـ يومين؟

تدهشني نفسي معك.

أتذكر كأن الأمر البارحة، كل لقاء، وكل مكالمة، كل كلمة، وكل لمسة. لحظات الحنين، ولحظات التحسر، ليالي الدفء، وليالي الصقيع.

تعاملت مع كل موقف منك، على أنه واقعة تاريخية، لابد أن تحفظ، وتوثق، وتخلد.

وأنت عاملتني، على أنني عابرة سبيل، لجأت إليك، في ليلة عاصفة، هوجاء، واجتهدت أن تمحو وقع خطاها المتطفل.

ألهذا الحد، أنت لا تعرف قدر نفسك؟ أنت أجمل، من أن تكون نزوة في حياتي، وتمضي، وأنا أعقد من الخضوع، إلى ذلك الظمأ المؤقت.

كنت أتذكرك، حتى في الأماكن، التي لم تشهد لقاءنا. بل كانت ذكراك أشد إلحاحا، حين يلفني مكان، لم يجمعني بك. وكنت أنت تنساني، في الأماكن، التي جمعتنا.

احترت، ماذا عساي فاعلة، حين أطرق كل الأبواب، ولا يفتح إلا الاشتياق إليك؟

أحرجتني كثيرا، حين أنظر في عيون الرجال، ولا ألقى إلا عينيك.

تقبلت كل عيوبك، ليس لأنني حمقاء. لكنني أدركت أن تقبلي لـ عيوبك هو أحلى ميزاتي. وكنت أنت، ترفض فضائلي ويزداد رفضك، حين تحسها ماضية إليك.

لأن بيننا وجعا، لا شيء يبرره، وتبرره كل الأشياء..

لأن الفراق، هو ثمرتنا الشهية، التى نرعاها، بإخلاص، وحنان..

لأنك الأكذوبة الوحيدة فى حياتى، الجديرة بالتصديق..

لأن خطوط الاتصال بينك، وبينى، مقطوعة الحرارة، مبتورة الفهم،

كان لابد لرسالتك التليفونية، التى سجلتها فى غيابى، أن تشعل النار فى أرجائى، تشطرنى إلى ألف قطعة، محلقة فى الكون.

أستمع إلى صوتك، قبل النوم، وبعد صحوى، قبل الخروج، وعند عودتى. فى أوقات انشغالى، وفى أوقات فراغى. حين أتعب، وحين أرتاح. وعندما أخرج، آخذك معى فى سيارتى، أسمعك أنشودة يطربنى إيقاعها.

فى كل مرة، أرهف السمع. أريد أن أسبر أغوار التسع عشرة كلمة تلك. أريد أن أكشف ، السحر الكامن بها. أريد أن أنقشها على جدران حياتى الباردة. أريد الاحتفاء بها، قدر ما انتشلتنى من السأم المخيم على أيامى.

لا أريد منك شيئا.

لست وراء الحب، أو العشق. لا أريد فهما، أو حنانا، أو دعوات للسهر والرقص، والعشاء.

أريد، واسمعها منِى لأول مرة، أن تبقى منِى، أطول وقت ممكن، تحت سماء واحدة.

فى ذروة تباعدنا، وخصامنا، وفى أقسى لحظات الرفض وسوء

الفهم، كان مجرد الاحساس، أنك حى، تتنفس الهواء الذى أتنفسه، وتحتويك الأرض التى تحتوينى، كافيا جداً، لأن يرضينى.

مجرد وجودك، بـ خير، وصحة، وعافية، وتحقق، كاف جداً ، لأن يسعدنى.

لا أريد منك شيئا، سوى أن تحافظ على نفسك، فى أحسن حال. فهذا معناه، أننى أنا أيضا، فى أحسن حال.

لا أريد منك شيئا، سوى أن تقرأ كتاباتى. لا أدرى لماذا الحزن، الذى يشملنى، حين يقرؤنى الناس جميعا، إلا أنت.

حاولت كثيراً، أن أقاوم الثقل الضاغط على روحى، حين تكون بعيداً عن كتاباتى.

مشاعر مركبة من الاحساس بالعبث، واللا الجدوى، والغثيان، تفترسنى، حين أكتب، ولا تقرأ.

ليس هناك أقسى، من أن تكتب امرأة، والرجل الذى يسكنها، لايقرؤها.

ليس هناك من عذاب، أشد من أن يلهم رجل، امرأة، أحلى الكتابة، وهو زاهد فى القراءة.

شىء ما، يحدث لسطورى، حين لا تمر، بـ أفق عينيك. حين لاتقرؤنى، كأن أخرى هى التى كتبت..

حين لا تقرؤنى، كأن الكتابة بـ حبر سرى، يحجب عنى الشكل، والمعنى..

حـين لا تـقرئيني، كأن لا شيء ممكن، بيني، وبين لغتي، إلا الريبة، والعداء.

حين أكتب، ولا تقرأ، أود الاختفاء، والانسحاب من العالم.

حين أكتب، ولا تقرأ، أريد الانزواء، في قفص ضيق، معتم.

أرجوك..

أرجوك، ابحث عن سطوري دائما، وأطلق سراحي من سجن، باختياري، أدخله، حين تقرؤني الدنيا كلها، إلا أنت.

لا شيء على الإطلاق، أهفو إليه معك، سوى، أن تتذكرني، كلما استمعت إلى معزوفة، «إليها» لـ «عبدالوهاب»، وتتخيل، كم سيكون الأمر رائعا لو تعانقت روحانا على أنغامها.

لا تدع شيئا، يعكر صفو مزاجك. لا تسمح لأية امرأة، أن تشغلك، أو أن تعطلك، أو أن تكون لحظة شقاء في حياتك.

افرح، واسعد، وابتهج وابق دائما، خالي القلب، والبال.

من وجودك، أستمد طاقة أكبر، على الانطلاق، والكتابة، والغناء، حتى لو فرقتنا الأيام، والأماكن، والناس، وحماقة الأقدار.

صدقني هذا ما أريده منك. هل تراه كثيراً؟

القضية بالنسبة لي، ليست أن أكون حبيبتك، وأن تكون حبيبي. ونعيش قصة غرام، نعرف سلفا، بدايتها، ونهايتها.

فما أكثر النساء، والرجال، الذين يقعون في الحب، كل يوم، ما أكثر البدايات الساحرة، والنهايات المفجعة.

دعنا نتحرر من هذا التكرار، الساذج، السخيف. دعنا نسمو على تلك الدوافع المعلبة، المتوارثة، التى تذل الرجال، وتكبل النساء.

دعنا نخلق علاقة جديدة، تغير جلدها كل يوم. دعنا نكون أول المغامرين، ونمنح الحياة، نموذجا نادر الوجود، قلما يجمع ما بين رجل مبدع، وامرأة فنانة.

كلمتنى، لتشكرنى على هديتى إليك، فى يوم ميلادك. تسع عشرة كلمة، بـ صوتك، من بينها اسمى، عبر الهاتف، سجلتها فى غيابى.

ألست معى، وبعد كل ما أوحته لى، كلماتك المختصرة، أنك أنت الذى يستحق الشكر؟

إلى ما بعد السماوات السبع، أدعو لك، بـ طول البقاء، وتألق العمر. وإلى ما بعد الفضاء الرحب، سأظل أشتهيك.

حكايتى

معك، غير كل الحكايات. حكايتى معك، قديمة كـ حماقة البشر، طازجة، كـ رائحة الندى المعطر، بـ أول صباح، أدركه الكون البراح.

حكايتى معك، سباحة طويلة، فى أنهار الدهشة، والغرابة، والشك.. بحر مشتاق إلى عنفوان المد، يحملنى حيث «أنا» و«دمى» تيار واحد.

حكايتى معك، لا مبرر لها، لا منطق فيها. هى بشارة جنون، إلى فضاء رحب حنون، يصلنى بـ حكمة مختبئة، حين ألملمها أسمو فوق أحزانى، محلقة على بساط من نور.

حكايتى معك، «شرف» لا أدعيه، وإن فضحنى التورط فيه. حلوة المعشر، علمتنى أن غيابك، أحلى ساعات الوصال.. وأن رنين الهاتف بيننا، هو إيقاع نشوتى المفقود، عبر خيوط الماء .

حكايتى معك، تباركنى، للبقاء عذراء، بين رجال، لا يؤمنون بإخصاب الروح.

حكايتى معك، علامة استفهام حائرة، ولأننى الابنة البكر، الوفية للحيرة، أتشبث بك.

حكايتى معك، - أعرف - قضية خاسرة لكننى مؤمنة، أن القضايا الخاسرة، هى الأحق بالتبنى.

تبنيت الغموض السارى بيننا، علنى اكتشف سر ارتعاشى، حين تمنحنى الدنيا، بهجة لقياك. تبنيت الصمت الوقور بيننا، علنى اهتدى إلى ملامحى، فى أزمان لم تعشنى. تبنيت شكوكك الدائمة، فى حب خالص لوجه الحب، علّنى أعرف، لماذا تذبل الزهور، التى اشتريها، وتعمر الزهور، إلىّ تهديها.

تأخذنى سيارتى إلى مكانك. الطريق إلى عينيك، مضىء بترددى. أحس بقليل من البرد وكثير من الحنين.

المسافة وعرة لا تقطعها المسافات. مجهولة الملامح، كـ وجه الدنيا، حين تأخذك بعيدا عن دنياى. نظرات الناس، ترعبنى. يصيبنى الزحام بالغثيان. يزداد احساسى بالبرد، والحنين إليك. تطلق روحى، تنهيدات احتجاجى، على عالم أعيش فيه، ولست من مريديه.

تحملنى سيارتى إلى مكانك. الطريق إلى عينيك، فردوس مفقود الخريطة. لكننى - ولا حيلة لى - ماضيه إليك، مدفوعة إلى مصير معتم، يتوجنى منارة دنياك.

بـ حق قبلات طويلة، بخلت بها شفتاك، آتية إليك، ولو كان آخر يوم فى عمرى.

«تعالى سأنتظرك» .. أخيرا قلتها. أخيرا، نطقت بها. أخيرا، أطحت بالبقية الباقية من عقلى، وأسمعتنى أجمل كلمة، يمكن أن يجود بها، رجل على امرأة.

وصلت إلى آخر الطريق. ارتعشت. لا أدرى، أهى ارتعاشات البرد، أم ارتعاشات الحنين.

أتلفت حولى، أبحث عن شيء منك. تمر لحظات، وأنت لست فى الأفق. وفجأة تظهر هالة من الضياء، بـ ابتسامة ترحيب تتجه نحوى. كيف لمحتنى، وسط هذا الزحام المخيف؟ فى عينيك، امتنان شامخ الكبرياء لـ حضورى.

أخذت يدى المرتعشة، بين يديك، وقلت: «أهلا». سرى دفء له طعم اللذة بيننا، فأعلنت انتهاء موسم الشتاء وبداية موسمك أنت. مددت يديك بـ كوب شاى، وقلت: «تفضلى». لماذا فعلت هذا بى، وأنا التى لاتحمل لك، إلا كل الخير؟؟ منذ تلك اللحظة، وأنا فى ارتباك شديد. منذ تلك اللحظة، والزمن، قد تجمد، عند امتداد يدك بـ كوب الشاى. منذ تلك اللحظة، وأنا أبحث فى الكتب القديمة، عن تاريخ الشاى وموطن رائحته. منذ تلك اللحظة وعلاقتى بـ قهوتى، على غير وفاق. فها هى تحرمنى مذاقها، بعد أن توجت الشاى، رحيق الحياة. منذ تلك اللحظة، والكون بأسره أختصر عندى، إلى كوب شاى من يديك. منذ تلك اللحظة، وبينى، وبين «الشاى»، أسرار، وهمس، وكلام، وغناء. منذ تلك اللحظة، وأنا على يقين، أن «ما بيننا» باق، وإلا كيف أفسر احساسك النافذ، أننى كنت فى أشد احتياجى، إلى كوب من الشاى؟ وكيف أفسر، المصادفة العجيبة، التى جعلتنى لأول مرة فى حياتى، أحتمل الوقت، حتى المساء، دون كوب شاى؟

شكرا، لا يسعه الزمان، ولا يفيه ثراء الأبجدية..

شكرا، لأنك أسرتنى بهذا الكرم، ودون أن أطلب، وهبتنى ارتوائى..

شكرا، على إطلاق سـراحى فى برارى دفء، لملمت كـيـانى المبعثر..

شكرا، لانتظارك حضورى المنهك..

شكرا، على احتضانك يدى، ولم تهمك دهشة الناس.

شكرا، على وسامتك الزائدة عن حد فهمى، واحتمالى..

شكرا، على لحظات الحيرة، وأغنيات السهر..

شكراً، على كل هذا الوهج، وعلى ارتعاشات الحنين..

و... شكرا، على كوب شاى ساخن من يديك، فى زمن الصقيع.

رجل من كلمات

أنا

لست أنا، بعد أول لقاء معك..

مـاذا فى مـلامـحك يحـرضنى على الفـرح؟ مـاذا فى ارتعاشة صوتك يغرينى بـ طول العمر؟ ولماذا أمام قوامك الرشيق، ترتبك حركتى؟..

التقينا لأول مرة منذ أيام..

غير مألوفة، تلك الألفة التى كـانت ثالثتنا. غريب، ذلك الإشعاع المبهج الذى غمرتنى به..

بيننا ذبذبات هواء خاصة، حملت إلى ورودى الذابلة روحك جامحة العبير..

بينى وبينك، شهوات مؤرقة الحنين، لا يطفئها إلا غفوة فوق أمواج البحر..

بيننا زمن يعتذر عن المجىء، فى توقيت ساقط من الزمن. أدركت

منذ اللحظة الأولى، أن لون عـينيك، نادر البـريق، لن يتـركنى فى حالى، وأن لمسة تصافحنا العابرة لن تقنع بـ مرور الكرام..

منذ اللحظة الأولى، أدركت أنك قصتى الجديدة الهاربة، من دمى إلى الورق..

أطل وجـهك، المفـعم بالسخـاء، من سحـابات الغروب، أدركت أن تعارفنا خطر..

عذوبتك المتدفقة..

حساسيتك المرهفة التى تحرجنى..

الغموض الجميل الذى ينتظرنى على شفتيك..

جرأتك المختبئة وراء حيائك..

أحلامك المتراكمة تحت مسام الجلد..

الشجن المطل من عينيك..

أشياء كلها تهددنى، تنذرنى بـ عواقب لست مهيأة لها.. وكان القدر حنونا، على امرأة لا تستسلم لمنطق الأقدار..

للمرة الثانية، رأيتك..

جئتنى فى الوقت الذى كنت أنتظرك فيه. جئتنى حين رق النسيم. كل شىء ضدنا، إلا تعويذة مقدسة، أتلوها بينى وبين رمادية الأفق. لعلك ترانى، وتنهى اضطرابى، غـيـر اللائق بـ رائحـة اليـاسـمين المصاحبة خطوتك..

بركاتك يا تعويذتى المقدسة..

ها أنت تلتقط خصلات شعرى المتناثرة. أخجلتنى من تلقائيتك المتجهة نحوى..

شهية، كانت إطلالتك..

مفضوحا، كان ارتباكى..

لا أتمنى شيئا، قدر أن تطول جلستك معى، وألا يعكر أحد، صفو النشوة بعثتها فى جسدى..

أنت وأنا، وحدنا لمدة عشرين دقيقة فقط. لكنها كانت كافية، لأن أهدأ وأرتاح..

تركت لك الحديث، واكتفيت أنا بـ تأملك، والاستماع إليك..

اكتشفت لأول مرة، أن عدم الكلام، هو أبلغ تعبير عن امتلائى باللذة.

أنت وأنا، وحدنا، لمدة عشرين دقيقة. أدخلتنى إلى عالمك الرحب، أخذت بـ يدى إلى ذكرياتك. دار بيننا قليل من الهزار، وشربنا معا الشاى، وحلاوة البدايات..

مسحت قطرات ترددى .. اقتربت أكثر منك. اعترفت لك بـ أننى منذ اللقاء الأول، أشعر أن حكاية ما تنتظرنا. كل شيء يصدر منك، يصيبنى بـ رعشات، لا مرجع لها، فى ذاكرتى. صارحتك، أننى أكتب قصة، من وحى هذه الرعشات..

عدت سريعا إلى صمتى أحتمى فيه، من جرأتى، ونظراتك المتسائلة..

كالسجينة لحظة اطلاق السراح، أنتظر الرد.. لم يتطلب الأمر، إلا ابتسامة عذبة من شفتيك، لأدرك أن سعادتى ممكنة، هنا والآن..

الخجل الجميل، الذى امتزج بـ كلامك، جعلنى أحس أن الحياة، رغم كل شيء، تستحق أن تعاش..

قلت.. ماذا قلت؟ دعنى أستعيد كلماتك كما هى، بالحرف الواحد: «أنا أيضا يخالجنى الإحساس، أن لقاءنا غير عادى. لست مندهشا، فـ الحياة علمتنى أن الأقدار ترتب لنا الأشياء، وما علينا إلا الاستجابة»

حين أنهيت كلامك، بدأ حصار الناس، وهجمت علينا، عيون التطفل، والاستنكار..

لا يهمنى، لو أخذك الصخب، وحجبتك عنى، ثرثرة نساء لا أنتمى إليهن..

ما يهمنى، هو أنك طمأنتنى على مصيرى العاطفى، على الأقل، لـ مدة الأربع والعشرين ساعة القادمة. ما يهمنى، هو أنك، تعانق اللحظة الفريدة التى جمعتنا.

أكتب هذه السطور، وأنت بعيد فى مدينة أخرى. حين أخبرتنى بالسفر، جاهدت ألا أبدو حزينة.. أتراني نجحت؟ أم أننى أمامك، كتاب مفتوح، لا يجدى معه إخفاء؟ لا أعرف كيف أتعامل مع اشتياقى الجارف إليك. ولا أعرف، لماذا أنت بالتحديد الذى أوحى إلىّ بأكثر مما تراه عيونى؟

لم أصادف فى حياتى رجلا ألهم قلمى، بـ هذه السرعة .. كيف استطعت أن تثير حب الفضول عندى، فقط، بـ لمسة واحدة من يديك؟

ليتك تتذكرنى فى السفر. ليتك تعود قبل الموعد الذى حددته..

أنتظر رجـوعك.. أنتظر دهشـتك حين تقـرأ سطورى. أنتظر أن يحتضننا الماء، فى سباحة طويلة، ضد تيارات الشكوك والملل..

أنتظر إلى أى مدى، على موعد أنا، هذه المرة، مع خيبة الأمل، صديقتى الحميمة الوفية..

أنتظر رعشتى حين أتنهد اسمك، ثم أرفع رأسى، فـ أراك دون توقع..

أنتظر اللحظة التى تتجرأ فيها، وتسألنى أول سؤال، عن أشيائى الخاصة، وحياتى الشخصية..

أنتظر أن تطلب رقم هاتفى، وأنتظر مجاملتك، حين تقول، أنك افتقدتنى فى السفر.

حين يلهمنى رجل قصة جديدة، كنت أبتهج لأنه سيقرأنى. معك أنت، أصابنى الخوف. مترددة هل أدعك تقرأها؟ أم عنك أخفيها؟ وكيف أخفيها وقد أخبرتك بـ أمرها؟.. إننى دائما أنثر أحاسيسى على الملأ، ليقرأها كل الناس. لم أتردد يوما، لم تحرجنى جرأتى يوما..

معك، اختلف الأمر..

ليست مشكلة كما اعتدت.. أن يقرأنى العالم. المشكلة هذه المرة، لو قرأتنى أنت.

أستطيع كما هو الحال دوما، أن أواجه الدنيا. لكننى لا أستطيع هذه المرة مواجهتك أنت.

مقتنعة بـ أنه حق لك، أن تقرأ ما ألهمتني به، عيناك. وأنا يؤرقني، ألا أعطي الحق لـ صاحبه، وأن أنكر الفضل على مانحه..

يعذبني صراع بين إحساسي بالواجب، وإحساسي بالخوف..

أتصدقني لو قلت، إنني أخاف عليك؟

نعم، أخاف عليك من مشاعري المتدفقة على الورق ..

اكتشفت من تجاربي الماضية، أنني أحب، وأعشق وأحلم وأنتشي مع الرجل بينما أكتب من الهامه. وحين أنتهي من الكتابة، تتغير كيميائي، تتبدل ملامحي، وينحول إيقاعي..

حين ألقي بـ القلم، أصير كمن أدرك سرا مستعصيا، بردت جاذبيته، وزالت هيبته. وينتابني هوس البحث عن سر جديد، وإلهام جديد..

حين أفـرغ من الكتـابة، أحس كـأنني نزعت يدي، عن جـريمة ارتكبتها، ويرعبني استعادتها بأي شكل، أو الحوم حولها ...

قبل أن يلهمني رجل، أكون بائسة، وحيدة ، مسكينة، ضالة، أفتش عن أي خيط، يداعب حبر القلم، ويدعوني إلى الورق..

وحين تأتنس الصفحات الخالية، بـ كلماتي، أطير فوق العالم محلقة، مـغـردة، أتجـاوز كل الحـدود، والقـيـود. لا شيء يطولني .. لاشيء يهزمني، أو يقهرني..

حين أنتهي من الكتابة، أو تنتهي الكتابة مني، أبدأ مشواري الوعر وحدي..

أحتاج رجلا يلهمني، لأسبر أغوار نفسي،ولغتي، وأميط اللثام عن كون لا يبالي بـ وجودي..

أحتاج رجلا يلهمني، علّني أكتشف خبايا الداء الجميل، الذي يجعلني في استغناء عن أي رجل..

أحتاج رجلا على الورق، حتى أستطيع العيش، بدون رجل على الأرض..

في احتياج أنا دائما، إلى شحنة عاطفية، مكثفة، جامحة الجنون، لأظل عاقلة في عالم فاتر..

أحتاج رجلا من كلمات، أبالغ في وسامته، ورقته، لأكتسب مناعة، ضد قبح وخشونة، الرجال حولي..

أحتاج دائما إلى رجل على الورق، لأمسك بالدليل الوحيد، على أنني امرأة..

رجال كثيرون ألهموني. كل منهم وقع في الفخ المنصوب رغما عني. كل ملهم بعد قراءة قصته، يتصور أنني الحبيبة التي تسعده وتعوض حرمانه من العشق والغرام. كل ملهم منهم.. التقط الطعم، وظن أن قلمي على وفاق مع قلبي. كل منهم أعتقد أنني امرأة، سهلة المنال، كما توحي مشاعري المتأججة على الورق.

كل واحد منهم صدمته المقارنة القاسية..

حتى الآن، لم أجد الرجل، الذي يصلح للغرضين معا، أن يكون ملهما على الورق، وحبيبا على الأرض..

أيكون هناك تناقض جوهري، بين ما يحرك القلم، وما يحرك القلب؟ هل يستحيل التطابق، بين حبيب الورق، وحبيب القلب؟

أعرفت الآن، لماذا أخاف عليك، من قراءة قصة أنت ملهمها؟

أنت أول رجل جعلني أعمل حساب هذه المقارنة الحادة. أنت أول ملهم، يؤلمني أن يقع في هذا المأزق، وأشعر أن من واجبي تحذيره

مقدما. أنت أول ملهم، يهمنى ألا تستدرجه المرأة المراوغة، القابعة داخلى، المتحفزة للعشق على سن القلم...

مرة واحدة، أريد ملهما، يهزم تلك العاشقة المستبدة ، لا تغريه كلماتها المشتاقة، ولا تذيب مقاومته، عواطفها الجامحة. وعلى يديه، يتبخر سحرها المخادع..

أريد ملهما، يفهم أننى لا أختار الكتابة، لكنها هى، التى بيدها الاختيار..

هى تختار ملهمها، تختار اللغة التى تعجبها، تختار لونها، ومذاقها، وشكل قوامها. تختار كيف أبدأ، وكيف تكون الخاتمة.

فى مواجهة كل إلهام جديد، لا حول لى ولا قوة. تحملنى الكلمات إلى أى أفق تشاء. ولا أملك، إلا الطاعة، والامتنان..

أريدك أنت، أن تكون ذلك الملهم اليقظ..

عدنى أرجوك، أن تكون أنت، الفارس، الـذى بإرادتى يحاربنى. وبـ معونتى، ينتصر على نصفى الخارج عن سيطرتى..

عدنى أن تكون أنت أول رجل، يتقبلنى حبيبة على الورق، لا أكثر. وأن يستمتع بـ كونه العاشق، المتجسد، فقط داخل رداء اللغة..

هذه هى شروطى لتقرأنى . . أمليها عليك، لأنك أصبحت ـ أكثر مما تصورت ـ تعنينى..

ما بين سفرك واليوم، مرّ هواء، مثقل بـ رمل الرتابة، وعواصف حنين اقتلعتنى من وقارى..

بين كل لحظة ، وأخرى، أتوقع عودتك. بين كل لحظة، وأخرى، أترقب مجيئك..

ارجع وخذنى إليك..

صوتك أجمل منك

افترقنا

قبل أن نلتقى.

وانتهينا قبل أن نبدأ.

فتحنا نوافذ الوداع، وانتشينا بـ عبير الهجران، قبل الأوان بـ أوان.

منذ اللقاء الأول، والمكالمة الأولى، حذرتك أننى منحازة إليك.

شىء ما فيك، أضاع حيادى. أثارنى الرجل الذى تخبئه عن أعين الناس، وتخاف عليه من شهوات النساء. أشجانى عزفك الهادئ، على أوتارى المنسية. أسكرنى صوتك بـ خمرة الوصال المحال. أسمعتنى أعذب الغزل. أحرقتنى نار انتظارك، انتظرها منذ زمن.

فى سكون الليل، وحين يخلد الكون إلى غفوته، يستيقظ فينا السهر.

عبر الهاتف، سافرنا إلى كل الأجواء. تسلقنا آخر ذرى العشق، عبرت بك إلى امرأة تسكننى ولا أعرفها. وأخذت بيدى إلى بركان داخلك، أطفأه عمر لا يأتى.

حين تسمعنى صوتك، تنهار مقاومتى، ويبطل مفعول كل أسلحتى.

قل لى ، من أين لك بـ هذا الصوت؟

من أين جئت بـ تلك النبرات الساحرة؟

يأتينى صوتك، من عالم لا ينتمى إلى هذا العالم. يأتينى صوتك من أرض باهرة الضياء، مفعمة بالخير، سخية النقاء.

أستمع إليك، فى أحلى صلاة، تعيدنى إلى ذاتى.

أنتظر رنين الهاتف كل مساء، يمنحنى نشوة سنوات، لم أميز منها إلا تجاعيد الظمأ.

كنت كريما إلى أقصى حد، تجاوز تخيلاتى.

تركتنى أنهل من صوتك كل احتياجى من رشفات الارتواء. قلت لى: «لابد أنها نهاية العالم أن تكون امرأة مثلك بهذا الحرمان».

«قلت لك: «لابد أنها نهاية العالم أن أعثر عليك فى زمن الجفاف».

ما أحلى مذاق الارتواء منك. وما أروع صوتك، حين يستجيب فى رقة، لـ حرمانى الطويل.

أصبح موعدنا عبر الهاتف ، كل مساء، إدمانى الذى لا أود منه الشفاء.

عودتنى على الاستماع إليك.

أصبحت رنات صوتك وسادتى، أغفو عليها كل مساء، لأخلد إلى الراحة، والهدوء.

عودتنى كل مساء عليك، وأنت على الخط الآخر من الهواء اختصرت العالم بأسره فى صوتك.

نعيم الدنيا حين يرن الهاتف، ويكون «أنت».

الجحيم حين يرن الهاتف، ويكون آخر غيرك.

لا أصدق أننى رأيتك مرة واحدة فقط. ومنذ ذلك اللقاء الأول البعيد، وصوتك عبر هاتف المساء، هو خيط المحبة، وجسر الوصال.

كيف كل هذا التوافق الممتع، ولم أرك إلا مرة واحدة؟ ما الذى سيحدث فى الكون، لو رأيتك ورأيتنى للمرة الثانية؟

لا أظننى أحتمل رؤية عينيك، بعد إدمانى صوتك .

أخاف أن أراك للمرة الثانية. أشعر أن عطائى قد نفذ، ولم تعد بى طاقة لكى أحبك. فقد أخذ صوتك كل قدراتى على العشق.

أخاف أن أراك للمرة الثانية. أشفق عليك من المنافسة التى أجبرك على الدخول فيها مع صوتك.

أخاف أن أراك للمرة الثانية. أخاف أن أفقد حرارة الخيال المتأججة فى صوتك.

لكننى بكل جوارحى، إليك أتوق.

أشتاق لأن أغرق فى لون عينيك.

أحن إلى لمسة يديك تضمنى إليك.

حتى لو كانت خيبة الأمل، هى نهاية المطاف، فـ «أنت» تستحق. معك ستكون خيبة الأمل حلوة المذاق.

لأنها منك، سوف تمنحنى خيبة الأمل المزيد من الأمل .

ألم أقل لك، «أنت» تستحق المخاطرة؟

الليلة، حين يأتينى صوتك، سوف نتفق على موعد.

لن أدع الليلة تمر، دون أن أحدد متى أراك للمرة الثانية .

صدقنى، أكاد أنسى ملامحك. نعم، عشقت فيك الصوت. لكننى فى نهاية الأمر أريد رجلا مكتملا، لا مجرد صوت.

أنهى صوتك مهمته على أكمل وجه، وهيأنى تماما لك. فهيا أظهر فى الأفق، ودعنى أراك للمرة الثانية.

يرن الهاتف فى موعده كالمعتاد. ألتقط نبرات صوتك، أتشبث بها.

لا أدرى من أين لنا بكل هذا الحوار؟ بعد كل مكالمة، نكتشف كلاما ليس فى اللغة، وحديثاً لم يخطر على بال العشاق.

الليلة، صوتك فى أوج تألقه الحنون.

طلبت منك اللقاء.

قلت لى: «لا أستطيع».

سألتك: ماذا تعنى؟

قلت لى: «أنت امرأة خطر. أنت امرأة أصعب من احتمالى. أنت متقلبة المزاج، والأحوال، وأنا أريد الأمان. أنت تستمتعين بالرحلة فى حد ذاتها، وأنا لا أستطيع السفر إلا إذا عرفت نهاية رحلتى. أنت لا تقدمين ضمانات لاستمرار الحب، وأنا أبحث عن الاستقرار. لست على استعداد لأن أواجه تقلباتك العاطفية. لقد تركت أثراً كبيراً، على حياتى، الأيام القليلة الماضية ولذلك لا أستطيع تحمل الفشل معك أنت بالذات. أنت المرأة الحلم، ولهذا لا أريد أن أفقدك. أنت تريدين ملهماً للقلم، أكثر

مما تريدين حبيبا للقلب. وأنا أرفض أن أكون عاطفة عابرة تمنحك قصة جديدة. لا أقبل أن أكون مجرد مادة للكتابة، معروف سلفا عمرها الافتراضى. فى كل مكالمة كنت على وشك الوقوع معك، وطلب اللقاء، لكننى تراجعت. أنت كالرمال الناعمة، الداخل إليها مفقود وأنا لم أقرر بعد أن أكون مجهول المصير».

أستمع إليك فى ذهول. أنت تقول لى أنا هذا الكلام؟! ليست المرة الأولى، التى يصرح فيها رجل بـ مخاوفه تجاهى، وأعرف أنها لن تكون الأخيرة.

ظننت أنك مختلف. أحيانا كان يخالجنى شعور بأنك ربما تكون رجلا عاديا. لكننى كنت ألفظه سريعا من خيالى. وأردد بينى وبين نفسى «لا.. هو مختلف».

لا أصدق.

ربما كان الأمر منذ البداية حلما، ربما كانت مكالماتك، خيالا، ربما ألم أرك أبداً، ولو لمرة واحدة!

أن أتصورك طيفا زارنى فى المنام، أهون من أن تصفعنى حقيقتك بهذا الكلام.

أليس هناك من مفر؟

كل الرجال يبحثون عن الأمان والاستقرار، والضمانات.

أين هو ذلك الرجل الذى يبحث مثلى عن الدهشة، والتحليق؟ أين ذلك الرجل الذى يعانق الخطر، وينتشى بالمغامرة؟ من يكون ذلك الرجل، الذى ينفر من الأمان، والاستقرار.. لا يسأل عن ضمانات، ويفتح قلبه كالسماء، لكل احتمال؟

ضمانات؟! كلمة مضحكة.

هل هناك فى الدنيا أى شىء مضمون؟ الحياة كلها، قد تزول فى لحظة، لاينفع معها تنبؤ، أو ترتيب، أو حذر. كما أن «الضمانات» تصح على الأشياء، لا على البشر.

ظننت أنك مختلف.

صوتك أجمل منك. لقد أحبنى صوتك، وتقبلنى كما أنا، واحتضنتنى نبراته فى رقة، وفهم، وحنان.

أما أنت فقد رفضتنى، وخفت من حقيقتى.

رجوتك عدم الاتصال مرة أخرى، ولو على سبيل السؤال العابر عن أحوالى.

سألتنى: «لماذا هذا القرار الصارم؟ دعينى أطمئن عليك من حين لآخر».

قلت لك: «أحتاج إلى بعض الوقت، لأتخلص من عدم حيادى تجاهك. أرجوك، انس رقم هاتفى، وعبير صوتى، ولا تحاول السؤال عنى».

ظننت أنك مختلف.

هيا اذهب، وابحث عن امرأة تمنحك الاستقرار، والأمان وأنت فى المقابل تمنحها البيت، والستر.

اذهب، اطلب يدها من كبير العائلة، ادفع «المهر» الذى يشترى لك الضمانات.

تزوج، وأنجب، مثل كل البشر. احصل على الابن الذى يمد سيرتك فى الدنيا، ويأخذ عزاءك حين ينتهى الأجل .

اذهب عنى. لتكن حياتك، ومشاعرك، ومماتك، نسخة مكررة من ملايين الرجال.

أما أنا .. فاتركنى لـ تقلباتى المخيفة، والخطر الممتزج بـ طبيعتى. دعنى مؤتنسة بـ وحدتى، وقلمى، وأحلامى المستحيلة.

أبداً، لن يصيبنى اليأس. يوما ما، ولو كان آخر يوم من عمرى، سوف أعثر على الرجل المقدام، الذى يحلق معى فى سماء الدهشة، والخطر.

يوما ما، ولو كان آخر يوم من عمرى، سوف أعرف مذاق العشق، مع رجل يستهويه الدخول إلى الرمال الناعمة.

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧

مثل .

اليوم فى العام الماضى، التقينا لأول مرة.

قالت صفحة الزمن، أنه الجمعة الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، وقال قلبى المتعب، أنه يوم خريفى، تحن عليه خيوط الشمس، يرسل فيه القدر رجلا جديداً إلى حياتى الزاهدة فى الرجال.

مثل اليوم فى العام الماضى، التقينا لأول مرة.

تصور، فاتت سنة علينا؟

مرّ عام على علاقة، لا اسم لها، ولا عنوان.. علاقة منها تهرب عيناك، وتتنصل شفتاك.

مرّ عام، وأنا، فى حيرة، لماذا التقينا بعد العمر الطويل،

لماذا افترقنا ولماذا رجعنا؟

الجمعة الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، بدأت رحلتى الشائكة معك، ومشيت خطوتى الأولى على دربك الوعر، المعتم.

يوم التقينا لأول مرة، أذكره جيداً كأنه البارحة.

كنت مجهدة المشاعر، ألملم جرحى الجديد، وفى ذهول أتساءل، أليس هناك مفر من خيبة الأمل؟

لماذا يكون قدرى أن أسير فى جنازة أفراحى، قبل صرخة ميلادها الأول؟

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، لقاؤنا الأول.. لم أكن مهيئة للدخول فى أية علاقة، معك أو مع غيرك.

وفى الوقت نفسه، مهيأة جداً.

قابلتنى بـ كلمات رقيقة، تصافحنا بـ حرارة، تبادلنا أرقام الهاتف، وعدتك بالإتصال ولم أفعل.

فاتت سنة من العمـــر، على عـــمرنا معا تـــصور؟ بادرت أنت بـ المكالمة الأولى.

منذ تلك المكالمة، وقصة ما، تشدنا لأن نكتب معا سطورها.

كل شىء بيننا، له غرابة تجذبنى أكثر إليك.

فأنا تستهوينى المشاعر الغريبة، ولا يعنينى رجل يبقينى فاترة الفضول.

كل شىء بيننا، طازج، له نضارة قطرات الندى .

معك أعيش كل التناقضات الممكنة بين رجل وامرأة. فـ كيف تمر على قلبى مروراً عابراً، وأنا المرأة عاشقة التناقضات؟

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، كل ما عشته قبل هذا التاريخ، شىء، وما أدركته على يديك شىء آخر.

كل لقاء بيننا، أكذوبة جميلة، تجبرنى عيناك على تصديقها.

نشرب نخب خطيئتنا النبيلة، لم نقترفها أى ليلة، ونكفر عنها كل ليلة.

أذهب إليك بـ أشـواق عـمـرى، ومـاهى إلا لحظات وتذهب عنى الأشواق.

فى لحظة تقترب، تأخذنى إلى أعالى العشق، ولحظة بعدها تهبط بى، حيث أرض موحشة الصمت، والجفاف.

استنزفتنى العلاقة معك. قل لى، ما اسم ذلك الشىء السارى بيننا، ويدمرنى بعد كل لقاء؟ ما اسم تلك اللعبة الخطرة التى نمارسها معا، ولانمل ضياع العمر، ولا نخشى الخسارة؟

فى احدى ليالى الصيف قلت لى : «أحبك كونى حبيبتى».

رحل الصـيف، قلت لى فى احـدى ليـالى الخـريف : «لا تكونى حبيبتى، لا أريد حبيبة أو حبا، أريد الصداقة كونى فقط صديقتى».

مضى الخريف، قلت لى فى بدايات الشتاء : ادخرى مشاعرك الجميلة، وعواطفك الرقيقة لمن يستطيع أن يمنحك المشاعر والعواطف. أرجوكى ابتعدى، تعذبين نفسك بالاصرار على علاقتنا. أنا لست لك، وأنت لست لى. لم أكن فى يوم من الأيام لك، ولن أكـون. قلبى ملكَى أنا ولَن تأخذيه أبدا» .

يا خوفى عندما يرحل الشتاء، ويأتى الربيع، ترى ماذا ستقول لى،

ومـا الذى ينتظرنـى منك، فى مـوسم الدفـء والزهور؟ مـاهو مـصيـرى الغـامض الـذى تدبره لى علـى شـفـتـيك؟ ومـاذا تبـقـى من اللعبــة التى تحاصرنى بها؟

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، لقاؤنا الأول.

مـثل اليوم العـام الماضى، أصـدرت حكمـا على نفـسى بالاحـتـراق. نعم، فأنت نار تطيح بكل الأشياء، نار لا تهدأ، ولا تـخـمد، إلا بـعد أن تحيل كل شىء، إلى رماد.

مثل اليوم العام الماضى، التقينا معا. عرفت لأول مرة، كيف يمكن أن أموت، وبى بقية من الأنفاس. تحولت خبراتى وتجاربى قبلك، إلى عدم، لا يسعفنى، ولا يحمينى.

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، لقاؤنا الأول. واليوم أعترف بعد مرور عام، أننى تعبت. أيا كانت اللعبة التى تستهويك معى، فإننى منك قد فرغت . تعبت.. ولم تعد بى قدرة على فهمك، أو احتمالك .أعترف بعد مـرور عـام، أننـى أمـام وسـامـتك الصـارمـة، دخلت مـعـركـة القلب، وخـسرت. ليست عندى مشكلة فى الإعـتـراف بالخسارة. عـزائى أن هزيمتى جـاءت على يديك أنت. أنت الرجل المجـرب كل شىء فى الحياة. لم تترك متعة إلا واعتصرتها. لم تترك ألماً إلا وذقته.

أين أذهب أنا، المرأة ذات المشاعر البكر، مع رجل مثلك؟

أين أذهب أنا، المرأة ذات القلب الحنون، مع رجل مثلك لا قلب له؟

أين أذهب أنا، مع رجل مـثلك لا يعـدنى امـرأة، ولا يدرجنى فى قائمة النساء؟

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، لقاؤنا الأول. واليوم بعد مرور عام، أدرك أن لاشــىء يشفــينى منك، إلا الموت، موتى أنا، أو موتك أنت. أو ربما أحتاج معجزة لـ كى أبرأ منك. قد تكون معجزة على شكل فقدانى للذاكرة، أو معجزة على هيئة رجل آخر. لست أدرى.

الثانى عشر من ديسمبر ٩٧، لقاؤنا الأول، واليوم بعد مرور عام، تشهق بك روحى الشهقة الأخيرة.

ولا عزاء للعاشقات المهزومات.

مساء خريفى، مؤتنس بـ خيبة الأمل فى كل الرجال حولى.

مساء ثقيل الإيقاع، على دقات قلبى الباحثة عن أنشودة عشق يخلدها صوتى.

نسائم خريفية، تقشعر معها ذكرياتى المبعثرة، فى أروقة حياة، لا تسعنى، وتتوقع أن أقدم فروض الطاعة، والانتماء.

كم من مواسم خريف، مرت، وأنا انتظر عاشقا، يتلعثم، فى زمن يصعب فيه الفصل بين الرجال، والأزرار. كم من مواسم خريف مرت، وأنا أتوق إلى رجل، لديه بعض الشك، فى عصر، أصبح كل شىء مباحا لليقين.

مساء خريفى، اكتملت أنجمه، وتهيأت لأن تشرب نخب حماقتى. فأنا مازلت أفتش عن عاشق، يصنع على نار هادئة، فنجانا من القهوة التركية، فى زمن القهوة «الفورية»، والمشاعر «الفورية».

ليلة خريفية لا تبالى بـ حالتى، حين فجأة، وجدتنى فى مواجهة معتمة، مع مأساتى، فريدة المذاق.

الليلة، صفعنى كل رجل فى حياتى. اتضحت الرؤية المحتجبة طويلا، أكثر مما أستطيع التحمل، أو التصديق.

الليلة، أدركت أن كل رجل أعرفه، ماهو، إلا اسم محسوب، على أنفاسى، وأعصابى، وأسرار انتشائى.

اكتشفت الليلة، أننى أهدر العمر القصير، مع رجال، لا يعرفون الطريق إلى مثواى الأخير.

كل رجل منهم، مجرد «ديكور» فى فندق مؤقت، قد يسد ثغراتى المشتاقة إلى الامتلاء، قد يزين الأركان المهجورة، قد يزخرف جدران الرتابة، لكن لا أحد منهم، بيتى.

هم ستائر بينى، وبين ألوان الطيف. لا أحد منهم، نافذتى على الشمس.

هم إيقاعات تطلبنى للرقص أحيانا. لكن لا أحد منهم، لحنى النازف من روحى.

كل رجل منهم، يتفنن فى أن ينسينى الدنيا، وما فيها. مخطئون هم جميعا. فأنا لا أريد رجلا، أنسى معه الدنيا، ولكن لأتذكرها أكثر فى عينيه.

لا أبحث عن رجل، ينسينى أننى نقطة ضئيلة فى الكون، ولكننى أنتظر رجلا، على شفتيه، أمتطى ضآلتى نحو الشموخ.

كل رجل منهم، يعزينى فى أننى فانية، وما ألمسه من أشياء بين

يدى، باق. بينما أنا أحلم بـ رجل، أحب معه رحيلى، وأستعذب فى أحضانه طعم فنائى.

كل رجل منهم، يجاهد لإثبات أن الحكمة، تقتضى لقاءنا. وأنا يستهوينى الرجل، الذى يتوجنى كبرى حماقاته.

مشغولون هم بـ تفسيرى، وكشف أسرارى، وأنا أطمح إلى رجل، أنشغل أنا، بـ فك رموزه. كل رجل منهم، يتمنى أن يصبح ملهما لـ كتاباتى. لكننى فى انتظار رجل، لا يطاله القلم، ولا تكتبه الكتابة. كل رجل منهم، مقيد بـ شىء ما، مهزوم فى معركة ما. واحد تقيده العادات، والتقاليد. واحد يكبله كلام الناس وتوقعات الأهل. واحد، مسكون بالأغنيات المريضة. واحد، تهزمه مفاهيم مضحكة، عن معنى الشرف، والرجولة. واحد يخاف أن يشرق النهار ذات يوم، ويجد نفسه، بـ ملامح، لا يقرها جيران الحى.

بينما أنا، مشتاقة إلى رجل، فوق كل القيود، وفوق كل الهزائم. «الحرية»، هى المرأة الوحيدة، التى يتحمل معاشرتها كل يوم، ويمنحها دون سواها، حقا مطلقا، فى أن تحمل اسمه، وتغير - كما تشاء - المزاج، وأوقات الزمان.

مشتاقة إلى رجل، «الحرية» هى المرأة الوحيدة، التى يسعده خيانتها، والذهاب إلى غيره. كل رجل أعرفه يحمل تلك العقدة الذكورية، إنه بالضرورة، أفضل منى.

وأنا يقتلنى الحنين إلى رجل، أكثر تعقيداً، وغطرسة. يحيا بـ قناعة، إنه أفضل رجل، ممكن الحدوث على الأرض. كل رجل فى حياتى، قابل للموت، فى تاريخ ما. وأنا أؤجل عنفوانى،إلى حين رجل، لا يجرؤ الموت على اقتحامه.

كل واحد من رجالى، يغريه كونى، «أنثى». وأنا اشتهى رجلا، لايستثير رجولته، إلا كونى، «كاتبة».

مساء خريفى، شديد الإلحاح. ألبى النداء وأسكب كل الرجال من حياتى.

الليلة، يستعيد دمى فصيلته النادرة. أعود ممتلئة بـ فراغ وحدتى، وأشواقى المستحيلة. الليلة، أنضو عنى الدور، الذى قدر اتقانى تقمصه، أتقن كراهيته. الليلة، كم أحتاج إلى دهشة جديدة، تنتشلنى من حصار الفتور. احتاج إلى هواء، جديد، ينعش صدرى.

ما أصعب أن أستقبل، ليالى الخريف، بـ روتين الصيف اللزج. يأتينى شدو «فيروز»... راجعين، يا زهرة المساكين.. راجعين ياهوى، على دار الهوى راجعين..

ما أقسى هذا الغناء الساحر، وأنا لست فى حالة الرجوع الجميل.

الليلة، أتمنى الرجوع إلى شيء ما، قصة ما، جنون ما. ولا أدرى لماذا «هو»، دون سواه، قفز إلى خيالى. انتفض كيانى لـ ذكراه، وتمايلت طربا، مع «فيروز».

أحتفظ له، بـ رعشة إعجاب قديمة، أخفيتها فى أعماقى. تذكرت كل الأشياء، التى فعلها من أجلى، وفضحت اهتمامه بامرأة تكبره، بـ عشرة سنوات، من العمر، والمرارة، والصدام مع القدر. مرت ثلاث سنوات، دون أن أراه.

لماذا أخفيت رعشتى عنه، حين تأكدت من اعجابه واهتمامه؟ لماذا تجاهلت سعادتى؟ لماذا، لم أسأل عنه، ولو مرة واحدة، طوال الثلاث

سنوات الماضـيـة؟ ولماذا الليلة، أتذكـره هو، دون سـواه. هو، الذى يصغرنى بـ عشرة أعوام؟

العـشق مع رجل يصـغـرنى، نقطة ضـعف فى وجـدانى. ليس فـقـط، لأنـنى أهوى، كل ما يطـلقـنى مغامرة، ضد المعتاد. ولكـن أيـضا، لإدراكى، أن حساسيتى المرضية تجاه مرور الزمن، لا يشفيها، إلا الحب مع رجل يصغرنى.

الليلة، بعد ثلاث سنوات،يداعبنى الرجوع، إلى اعجاب هذا الشاب.

أود أن أحكى له، عن آلامى، ووحدتى، ومسراتى المبتورة.

أحتاج إلى اهتمامه الذى اقتحم خلوتى، منذ ثلاث سنوات.

بى حب فضـول، لأن أعرف ماذا حدث له، خلال الفترة الطويلة الماضية. بين دفاترى القديمة، عثرت على رقم هاتفه. إحساس محير، وجميل، فى أن واحد، أن ترتبك المرأة،وهى تتصل بـعـد غيــاب، بـ رجل، يصغرها بـ عشرة سنوات لكن رغبتى فيه، أكبر من حيرتى، وارتباكى.

مع انتـصاف الليل، أدرت الرقم. الخط مـشـغـول. جـربت مـرات، ومرات، لا فائدة. أحسست بالحرج،والخجل.

أخذنى النوم، فى حلم طويل معه. وكان معى، وأنا أرتشف اشراقة النهار. كنت أفكر فى حظى العاثر الذى حال بينى، وبينه. كنت أستعيد جرأتى، التى أجهضها الخط المشغول. ماذا، لو كان الخط خاليا؟ ماذا، لو جاءنى صوته؟ هل أنا متطفلة؟ وماذا، لو كان هو الآخر، يحلم مثلى، فى موسم الخريف؟

ابتلعتنى الشوارع المزدحمة. كان لابد من النزول لقضاء بعض المشاوير الهامة. أسير غير مبالية، بالضجة والعيون المغتصبة شرودى. ومرة أخرى، أفكر فى الهاتف المشغول، الذى أربكنى، وأحرجنى.

ويطير خيالى إليه. ترى إلى أى مدى، تغير؟ هل سألمح أثر الثلاث سنوات، على ملامحه؟ هل مازال رقيقا؟ هل مازال مهتما، بإمرأة تكبره بعشر سنوات من العمر، والمرارة، والصدام مع القدر؟ هل سيتذكرنى؟ هل مازال على علاقته الحميمة، بالموسيقى؟ هل أعاود الاتصال الليلة؟ هل سأرتبك إذا رأيته؟هل...

ثم.. لا أصدق. وكيف يمكن أن أصدق؟ لا.. لابد أننى أحلم. هل يمكن أن يحدث هذا، الذى أراه الآن، أمام عينى؟

أنت، نعم أنت، حقيقة مؤكدة أمامى، لا أحتمل هذه الصدفة، ولست مهيأة، لأن أصدقها، أو أفهم دلالتها.

جمدتنى المفاجأة.. أذهلنى وقع الصدفة، وتوقيت حدوثها. أنت الآخر، تبدو مندهشا. دون أن نتكلم، سرنا معا، إلى ركن هادئ، بعيداً عن الزحام، والضوضاء.

«قلت لك: «شيء غيرمعقول، بالأمس، حاولت الاتصال بك ومنذ لحظة واحدة، كنت أفكر فيك». وجاء ردك أغرب من الصدفة التى جمعتنا: «تصورى، كنت فى خاطرى منذ الصباح».

لا أدرى، كم من الوقت فات علينا، ونحن نتبادل نظرات الدهشة، والحنين، وعدم التصديق.

هل كنا نريد اختصار الثلاث سنوات التى مضت، دون اتصال؟ هل

كنا نحاول فهم صدفة عجيبة، رتبها القدر؟ هل كنا نمهد الطريق، لـ شيء ما بيننا، يبدأ في الخريف؟ هل كنا نريد، ايقاف الزمن، والرجوع إلى ما قبل السنوات الثلاث، حيث الاعجاب الأول، والرقصة الأولى، والاشتياق الأول؟ التقينا في المساء.

أنتظرك في المكان نفسه، الذي جمعنا لأول مرة، منذ ثلاث سنوات.

أراك على البعد، تقترب. فقط هذه اللحظة، اكتشفت كم افتقدتك . واستغربت حياتي، التي عاشت، دون أن يكون لها نصيب فيك.

ساعات من الزمن، مرت معك. ألبستني الدفء المطل من عينيك فـ باركت برودة المساء.

أحببت هدوءك. عانقت رقتك، والخجل الذي يكسو ملامحك، حين تمنحني كلمة حب متوارية الحروف.

تصارحنا.. وبقيت أسرار تشاركنا فرحة، نتردد في الإفصاح عنها.

سألتك: «ما الذي يستهويك في امرأة تكبرك بـ عشرة سنوات؟

قلت لي: «لا شيء يهم إلا الاحساس. ثم أنك، لست امرأة عادية، يحددها الزمن. أنا أراك أرضا مجهولة، ممتلئة، بالسحر، والغموض. تستهويني غرابتك، وتناقضاتك، وأرغب في اكتشافك. ترى كم من الوقت، يلزمني؟»

قلت: «قد تكفي لحظة واحدة، وقد لا يكفي العمر كله».

حذرتك أن الطريق، وعر، غير ممهد، ممتلئ بالأخطار، ولست على يقين، إنني سأقدم لك العون. قلت لي : «إنني بـ طبيعتي مغامر والمرأة السهلة، لا تلفت انتباهي».

لا أدرى، كيف تأثرت بـ هذا الرجل، صاحب أعجب صدفة فى حياتى؟ كيف منحنى إحساساً جديداً بـ كيانى، وأنوثتى المتآمرة ضدى؟ كيف لم نشعر، بمرور الثلاث سنوات، وكأننا كنا دائما معا؟ كيف فى حضوره أعرق، وأرتعش، وأخجل وأنا التى تكبره بـ عشرة سنوات من العمر، والمرارة، والصدام مع القدر؟

وقعت فى غرام، الارتباك اللذيذ، الممتزج بـ جرأته. كم يثيرنى الرجل المرتبك!

عشقت صوته، الذى يوقظنى بأحلى تحية للصباح. أحس بالامتنان، لكلمات الغزل الوقور، يحرص عليها فى كل مكالمة، ولقاء

إلى أين، يأخذنى عنفوانه الرشيق، المصر، على تحويل ايقاعى؟ لا أعرف.

إلى أين، تأخذه خيبات أملى المتكررة؟ لا أعرف؟ هل يكون هو العاشق، الذى يصنع على نار هادئة فنجانا من القهوة التركية، غير مبال. بـ زمن القهوة «الفورية» والمشاعر «الفورية»؟

وهل ترانى مهيأة للأمر، لو كان هو، الرجل، أحب معه رحيلى وأستعذب فى أحضانه طعم فنائى؟؟

«عليك	أن تختارى بينى وبين الكتابة»... هكذا بكل بساطة، تركنى فى آخر لقاء. «مسافر لـ عدة أيام، وحين أعود أتمنى أن تكونى حسمتِ أمرك، أنا أو القلم»..

هكذا بكل بساطة، يحدد شروط الارتباط.

رحل عنى، وأنا مازلت فى ذهولى. أهو الرجل الذى أحببت؟ أهو الرجل الذى أسمعنى حلو الغزل؟

أهو الرجل نفسه، أهدانى زهوراً صفراء، تزداد نضارتها مع أيام الحنين؟ محال أن يكون الرجل، معه استعدت بريق طفولتى، وعلى شفتيه نقشت شفرات جنونى؟

مرتبكة، ولا أدرى إن كنت حالمة، أم أننى أمام حقيقة مرعبة، تفضح ملامحها دون رتوش؟

اخترته من بين كل الرجال، وهو يخيرنى بينه وبين «الكتابة».

كيف أصدق؟ وقد كانت كتاباتى جسراً للتواصل بين قلبينا.

كيف أصدق؟ وقد كان العشق معه سلساً، لأنه أحبنى كـ كاتبة.

تعود ذاكرتى إلى البدايات. عرفته فى أحد مواسم الربيع، بالتحديد فى «أبريل»، بالتحديد أكثر فى يوم ميلادى. مصادفة، أننى كنت احتفل فى الليلة نفسها، بـ ميلاد كتابى الجديد.

أصدقاء كثيرون حولى، يقدمون التهنئة. وفجأة تظهر قامته الفارعة من حيث لا أدرى.

أعجبنى منذ النظرة الأولى، وهذا نادراً ما يحدث لى.. أحببت رشاقته غير المألوفة بين الرجال المصريين. وقعت فى غرام أناقته الزائدةعلى الحد. تساءلت عمَنْ عساه أن يكون؟مَنْ هذا الضيف الوسيم فى بيتى، ولست أعرفه؟ مَنْ هذا الرجل الحاضر دون دعوة، حفلة عيد ميلادى؟

لم أشغل بالى طويلا بـ إيجاد الجواب كان اهتمامى مستغرقا فى أمنية واحدة، أن يوقد هو، ولا أحد سواه، شموع حفلتى.

وكأنه قرأ أفكارى، تقدم من بين كل الضيوف، وطلب أن يقوم بالمهمة.

أوقد الشموع، ومعها فضولى لأن أدخل إلى عالمه، وأسراره.

منذ ذلك اليوم، ولدت من جديد.

طفنا الدنيا.. رقصنا على كل إيقاع.. أفضيت له بـ مخاوفى.. حكى

لى عن أحزانه.. حاورنا البحر، والأشجار، وصمت القمر. أطربنا الغناء القديم فى ليالى السهر، شربت من يديه الحنان وأعذب الشجن. حين تحدث فى أمر الزواج، لم أحس أنه يخفى شيئا. رغم رفضى للزواج، وافقت. ليس لأننى أريد أن أكون زوجة، ولكن لأننى لا أتصوره فى حياة امرأة أخرى.

حين فاتحنى فى مسألة الارتباط، لم أشعر أننى محتاجة لأن أشرح نفسى، وكيف تسير حياتى، وإلى أى أفق أود التحليق.

لم أحاصره بـ أسئلتى المعتادة عن معنى الزواج. كل الذى شغلنى أننى سأكون له، وهو سيكون لى. تنازلت عن كراهيتى للزواج، من أجل اقتسامى الحياة معه بـ حلوها، ومرها. ما يهمنى أن أعبر عن امتنانى لـ وجوده فى زمانى.

حين اقترب موعد الزواج، بدأ يلمح عن الكتابة فى حياتى. لم أفهم مقصده. ولم يكن من الممكن أن أفهم. وجاءت تلك الليلة، صارحنى بما لا يدع مجالا لأى شك. أفقت من الحلم، بل من الوهم.

«عليك أن تختارى بينى وبين الكتابة، أنا أو القلم. نعم أحب كاتبة، لكنى لا أتزوج كاتبة».

هزنى كلامه هزة عنيفة، غير متوقعة، جعلتنى أتعفف عن النقاش. أناقش ماذا؟ أرفض أن أضع وجودى فى الحياة، على مائدة حوار. لست مستعدة ولو بإسم الحب، أن أدخل فى سوق المساومة.

غداً يعود من السفر ويعرف قرارى.

«نعم أحب كاتبة، لكننى لا أتزوج كاتبة».. مازالت هذه الجملة ترن فى أذنى، وتجعله محرما على قلبى، وجسدى.

ذهبت إليه في الموعد. أرتشف وسامته التي أعجبتني منذ اللقاء الأول. أتأمل رعشات الهواء بيننا. أطيل النظر إلى عينيه. شرب القهوة ورحل عني. أرقب رشاقته وهي تبتعد. في لحظة استعدت فرحتي، وهو يوقد شموع يوم ميلادي، حين التقينا أول مرة.

أكثر ما يؤلمني، كيف خدعني وأنا المرأة التي تزهو بـ إدراكها خبايا البشر، وبواطن الأمور.

تلاشى خياله بين الأشجار. وذهبت أنا إلى أنيسي الوحيد في الحياة، لا يشترط شيئاً، ومنه يغار كل الرجال.

السابع عشر من يوليو

منذ سنوات تلفظها الذاكرة، ولدت على أرض الكنانة، طفلة، لا أرض لها، ولا سماء.

لم تصرخ الطفلة، صرخة الميلاد الأولى. أتراها أدركت بـ فطرة نادرة التكوين، أن للصرخات زمانها الآتى، فلم حماقة التعجل؟

تمر دورة الزمن دون استئذان من أحد، تكبر الطفلة.

لسبب مالا تعرفه، تحس أن هذا العالم، ليس بيتها. تتساءل، من أجل ماذا، تتحمل مزاجها الربيعى المتقلب.

تمر دورة الزمن، دون مبالاة الكون. تكبر الطفلة، تصبح شيئا ما، خطأ ما، لعنة ما، سحابات من حياء شرس، شدوا جامحا فى الأفق. تكبر الطفلة تصبح حركة ما، فى فراغ ممتد الدهشة والشجن.

تمر دورة الزمن، تطوى العمر الباحث عن سبب مقنع للبقاء. تكبر

الطفلة، تصبح «كيانا» ملغما بـ عشق الخطر، والنجم مغترب الضياء.
تكبر الطفلة، تصبح «امرأة» كثيرة الشرود فيما لا يجدى، تحن إلى رجل دائم السفر، فى عينيه فرحة، تزيد من أسرار الكون.

تكبر الطفلة، تصبح «امرأة» لا قانون لها، ولا أمان، اسمها.. «أنا».

لا أدرى لماذا هذا الصباح، تنتابنى هذه الخواطر؟ ماذا فى إشراقة النهار، المطل اليوم على خلوتى، ما يثير الاشجان، ويعبث بـ أماكن الذكرى؟

أرتشف فى صمت صاخب الإلحاح، تنهيدات حيرتى، وأبدأ طقوس الصباح.

أعانق الماء.. أدخل فى حوار - ينتهى قبل الآوان - مع رائحة البخور.. أطل على أشعار تستحى الإفصاح، عن خباياها.. أشرب قهوتى متأرجحة المذاق بين المرارة والحلاوة.. أعيد ترتيب أشيائى، وأوراقى.. ألوذ بالغناء القديم، يؤنس تأملاتى.. أحكم الغطاء على نهمى لكشف آخر تشكلات البحر، وفضح أول رجل أحببت.. أقترف فعل التمنى، أن تكون ملامحه الشهية آخر قائمة الممنوعات.. أتوق إلى نبوءات ترجمنى بـ خيبات أمل، تمنحنى عافية الصبر. تحملنى أنهارى - سئمت عذوبة التدفق - إلى مصب لا يستبشر بـ حكمة الظمأ.. أمتطى جموحى، نحو أرض لا يحكم فيها الموتى.. أستريح فى مدن مفتوحة الحدود، لا تعرف جوازات السفر، وتأشيرات المرور.. أختم ترحالى بوطن يمنحنى حق التمرد على الوجه الآخر للقمر.. أحكى لـ طفلة تنكرها أمومتى، عن ألوان الطيف، حين يغرب - فى الأفق - دمى. أحذرها من أن ترث جنونى، ورومانسيتى.

تكرار يصيبنى كل صباح بالرعب. لكنه اليوم، ذو مسحة عبثية، تحرمنى لحظة استرخاء.

على صفحة الزمن، اقرأ أن اليوم هو السابع عشر من يوليو. المفروض أن أشعر بالفرح. فاليوم تمر خمسة أعوام، على علاقتى معه. المفروض، أننا سنحتفل الليلة، كما نفعل كل عام. لكننى فى عالم آخر، ولا أدرى، متى سأعود.

يرن الهاتف.. ينساب صوته: «كل سنة وأنت حبيبة عمرى.. كل سنة، وأنت كما أنت، محلقة، مبدعة، زهرة شائكة العبير.. موعدنا الليلة السابعة مساء، هيأت الدنيا كلها، لـ نحتفل معا».

أشفق عليه من أوهامه. اليوم، لا شىء يمكن أن يرضينى، لا أحد اليوم، يستهوينى. لا أدرى، لماذا هذه الأحاسيس، فى ذكرى رعشة القلب؟ منذ بداية العام، وأنا أرتب لاحتفال السابع عشر من يوليو، معه. منذ بداية العام، وأنا فى انتظار السابع عشر من يوليو. وحين جاء السابع عشر من يوليو، أود الفرار. ياله من مأزق محرج.

أنت وليالى السأم

كنت مؤمنة، بـ أن الإنسان «مخير» على الأرض. أغرب حقائق الحياة، ما كانت لـ تقنعنى بعكس ذلك. أقوى الحجج، ما استطاعت أن تبدل قناعتى. أكثر الناس حكمة، عجزوا عن تغيير إيمانى.

ثم...

ثم حدثت «أنت» فى حياتى. تفوقت عيناك، على حكمة الناس. نجحت شفتاك، فيما فشلت فيه، أقوى الحجج. وانتصر خيالك، على حقائق الحياة.

استلزم الأمر، رجلا عجيبا مثلك، لأتحول إلى النقيض. تطلب الأمر، عشقا همجيا، مغضوبا عليه، متوحش الحنين، يحتضر كل مساء، ليبعث مع إشراقة النهار، متجدد الدم، والمسام.

بعد حدوثك فى حياتى، آمنت، وسلمت، بأننى لست إلا «مسيرة».

لا شيء يفسرك داخل قلبى الملول، الزاهد فى الرجال، إلا أننى مشدودة إليك، بـ قوة أكبر من فهمى، وسيطرتى. لا شيء يشرح اصرارى الموجع عليك، وأنا الثائرة ضدك، إلا أنك، قسمتى المكتوبة من ومضات الألم، ونصيبى المقدر، من رعشات الشجن.

خابت كل الأسباب، التى تغفر فرحتى بك، رغم اجتهادى فى مسح بصماتك، غير أن أكون فى مواجهة، تيار عنيف، لست مؤهلة للسباحة ضد أمواجه.

قبل حدوثك فى حياتى، كان لى «جبروت» أزهو به أمام نفسى، والناس، وتقلبات الزمن. بعد حدوثك فى حياتى، ارتديت التواضع رغما عنى.

حولتنى من امرأة، تعاند القدر، إلى امرأة تسبح بـ حمد الأقدار.

غيرتنى من امرأة، تلهث وراء الفهم، إلى امرأة تعشق الأسرار.

جئتنى بـ الأمس فى المنام.

حتى فى الحلم، لا تتنازل عن عنادك؟

حتى فى الحلم، رجل متعب أنت، كما فى الحقيقة؟

حتى فى الحلم، تضن بالغزل، والقرب، والحنان؟

يا للطريق المسدود، الذى أوصلتنى إليه.

فى الأحلام، دائما مشاع للجميع.

فى الأحلام، متنفس لكل روح محرومة. فى الأحلام، يتحايل الناس، على الحقيقة.

لكن الحلم معك، لا يخفف حرماني منك. الحلم بك، يتحدى كل ماهو معهود من الأحلام. الحلم بك، حقيقة أخرى، تضيف إلى حرماني رصيداً آخر. منذ أن صحوت منك، وأنا تائهة في ملكوت، أنت صانعه ومبدعه، وحارسه.

منذ أن صحوت منك، وأنا هائمة في لون عينيك. لا أعرف إلى أين مصيري، أوكيف منك المفر.

تعال، واخرجني من هذا المأزق، أو قعتني فيه، شفتاك الجاحدتان.

تورطت معك، في أحلى غياب، له حضور السماء، في زرقة الألوان.

تورطت معك، في أعذب فراق، له مذاق الثمالة،بعد زمان الظمأ.

منذ أن صحوت منك، وأنا أبحث عنك، لابد أن أعثر عليك الليلة.

لا أدري، ما هذه الشحنة المؤرقة، التي بثها الحلم بك، في كياني.

الليلة، لا شيء يمكنه، أن يجعلني أتراجع .. لابد أن أجدك الليلة.

يرن الهاتف.

هل تكون أنت؟ ربما، لم يفت زمن المعجزات، ويكون صوتك، هو المختبئ في الرنين.

على الطرف الآخر، يأتيني صوت يدعوني إلى سهرة، فيها، كل ما تشتهي امرأةوحيدة القلب.

ياللسخرية.

دعوة تحت أمري، تنتظر موافقتي، وأنا بدون تردد، أعتذر عنها، وأرفض صاحبها.

تلح الدعوة، وأنا أعتذر. تعاود الالحاح، ولست أملك، إلا الانسحاب.

لماذا أرفض؟ ما الذى سيحدث فى الكون، لو أننى لبيت دعوة السهر؟

لن يحدث شيء، سوى أننى سأمضى المساء، مع صديق، مهذب، لطيف، يتمنى الاحتفاء بصحبتى.

لن يحدث شيء، غير أننى سأخرج إلى دنيا، تهفو إليها النساء، وأنا دونهن، لا أبغيها. دنيا تناديني، لكنها لا تستهويني.

سيمر الوقت ثقيلا، وأنا فى صحبة وحدتى المشتاقة إليك.

تقول صديقتى، إننى ساذجة. تنصحنى دائما، أن أتخلى عن جمودى، وتعقيدى. من رأيها، أن الوقت مع رجل، أفضل دائما عن الوقت مع وحدتى. صديقتى ترى أننى لن أخسر شيئا، طالما أن حريتى فى يدى، وأن صاحب الدعوة، رجل لطيف، مهذب، يقدرنى، ويحترمنى.

تقول صديقتى، أن الحياة قصيرة، ولا يجب أن أبددها مع وحدتى.

أتساءل دائما، هل حقا لن أخسر شيئا؟

هل يكفى، أن أكون حرة، وأن أكون فى صحبة رجل، لطيف، مهذب، يقدرنى، ويحترمنى؟

بالنسبة لى، لم تكن هذه الأمور، يوما كافية، لأن تغرينى بالسهر.

ما أكثر الليالى، التى هاجمنى فيها السأم، ومزقتنى الوحدة فيها. وما أكثر دعوات السهر. التى كانت تأتينى.

لكننى لسبب ما، كنت أنتهى مع السأم، والوحدة. لسبب ما، أفضل ألم الوحدة، عن لذة السهر، مع رجل لطيف، مهذب، يقدرنى، ويحترمنى.

القضية عندى، ليست اللطف، والتهذيب، والتقدير والاحترام.

القضية، أننى أستخسر لحظة واحدة من الزمن، مع رجل، لا يشبه الجلوس أمامه، الاندفاع نحو بركان، غير مأمون العواقب.

أستخسر لحظة واحدة من عمرى القصير، مع رجل، أعرف مقدما، أنه لن يقلب كيانى، ولن يبدل أيامى، ولون عينى، وفصيلة دمى.

ليس باستطاعتى السهر، مع رجل، لا تلهث أنفاسى، وراءه، طوال مدة اللقاء.

محال أن أسهر الليل مع رجل، لا يعرف كيف يؤجل مطلع النهار، وإلى بيتى يعيدنى، سالمة، معافاة، فى كامل صحتى العقلية، وقواى العاطفية.

ليست المشكلة، كما تعتقد صديقتى، أننى لن أخسر شيئا، طالما أن صاحب الدعوة، صديق مهذب، لطيف، يقدرنى، ويحترمنى. إننى على العكس. أبحث عن رجل، معه أخسر، شيئا ما، لا محالة.

يالها من سهرة مملة ،تلك التى أدخلها، وأخرج منها، دون خسارة تذكر، من راحة قلبى، واطمئنان بالى.

مشكلتى دائما، أننى لا أجد الرجل الذى يمكن معه، أن أخسر شيئا.

كل الرجال حولى، مسالمون أكثر مما ينبغى، وأكثر مما أحتمل. لا أحد منهم، باستطاعته، أن يجعل سهرتى معه، نقطة انقلاب فى حياتى.

مقصدى ليس السهر. ولكن ما بعد السهر. غايتى، أن يتحول مجرى الفرح فى عمرى، وأن أذوق طعـــما للحـــزن، يمنحـــنى أسرار حياة لا تفهمنى.

لست ساذجة، كما تقول صديقتى، ولست معقدة، أو جامدة.

لكنـنى لسبب ما، جشعة العواطف، نهمة الاحساس، إما كل شىء، أو لا شىء.

إمـا رجل فـيـه كل الرجـال، أو لا رجل على الاطلاق. إمـا التـعـقل الزائد، أو كل الجنون.

الليلة، أنت الرجل الوحـيـد، بإمكانه إرسالى دفعـة واحـدة، إمـا إلى الجحيم، أو إلى الفردوس.

ولكن أين أنت؟

أبحث عنك فى كل مكان، لا مفر من العثور عليك، هذا المساء.

وجـدتك، مـخـتـبـئـا بين سطورى، حـاضـراً على أوراقى. وجـدتك، ممتزجا بـ رائحـة الهواء الداخل إلى صـدرى. عثرت عليك، مستلقيا على جلدى، مسترخيا فى عينىّ.

اصطدمت بك على إمتداد قامتى.

أكاد أجن.

كيف تكون بـ هذا القرب، ولا ألقاك؟

كيف ترتمى على شفتىّ، ولا تمنحنى قبلة الحياة؟

كيف تكون ملتصقا بـ جسدى، ولا ألمسك؟

إذا كان ثمن لقياك، مرهونا بأن تخرج مِنى، وإذا كانت رؤيتك، مرتبطة بإنفصالك عنى، فهيا اقطع الحبل السرى الواصل بيننا، حتى نلتقى.

أين أنت؟

تلدغنى عقارب الساعة، أحس بـ المرارة فى حلقى.

خسارة هذا الوقت الضائع، أنا فى مكان، وأنت فى مكان آخر.

حـرام، هذه اللحظات الضـالة من الزمن، لاتعرف أين تستقر، عندك، أم عندى.

أعرف أن دعوتك لن تصلنى أبدا، وأن الليلة، ليست استثناء، عما ألفناه معا، وأدرك عن يقين، أن السأم، والوحدة، منتهاى.

لكن كل شىء يهون إلا السهر مع رجل لطيف، مهذب، يقدرنى، ويحترمنى، يعيدنى إلى بيتى سالمة، معافاة، فى كامل صحتى العقلية، وقواى العاطفية.

نهاية العام ليلتى معك

صحوت

من دهشتى، لم تفارقنى منذ رنين الهاتف. ارتشفت - فى صمت - تنهيدات الود المؤجل.. سافرت الذكريات حيث، لاعـزاء، ولا وطن، لـ عـاشـقـة، أرخت سـتـائر الزمـان، لاتعانق جرأتها، إلا على الورق.

ألفُ وأدور فى المكان المحاصر لهفتى. باحثة عن بقايا صوتك، فأجانى بما اعتقدت أنه طيف خيال. وذكرى مستحيلة التكرار.. أن أرتعش حين ينساب اسمى من بين شفتيك.

ألفُ وأدور فى المكان الشاهد على أننى التـقيت بك عبـر الهـاتف. ألتـقط نبراتك المتناثرة على أشيائى، الممتـزجة بـ وحـدتى، وأوراقى، وأسالها أن تكرر دعوتك وأن تعيد نشوة الحوار.

كـيف تذكـرتنى وأنت هناك فى البلد البـعـيـد؟ كـيف فكرت فى الاتصـال وبيننا مـسافات لا يذيبـهـا خـيـال فى ذروة التجليات؟ كـيف مررت على درب ذاكرتك وقد وعدتنى عيناك - فى ليلة قمرية - بالنسيان؟

كل شيء حولك، يغنيك عنى، البحر، والليل - والجبال، والشجر، والنساء، والأغنيات. قل لى بحق الرنين العابر الحدود بيننا، كيف مع كل ذاك السحر، تستحضر ما كان بيننا؟

أرجوك، فض اشتباكى مع دهشتى، وساعدنى على أن أصدق، ما كان دربا من الهذيان.

أستعيد ما حدث، وكأننى أتشبث بـ طوق نجاة.

كنت شاردة فى انفلات سنوات العمر، تشملنى مرارة «ديسمبر» ذات المذاق الغامض. أخذت أفكر، إلى متى سأظل أنا، والشهر الأخير، لحنا معربد النغمات، يتوق إلى قدسية الاستماع؟

إلى متى، كلما أطل من الأفق، يجتاحنى اشتياق عنيد، إلى التحسر على ماهو آت، وإلى فرحة تحملنى سراً إلى أزمنة البكاء؟

أتأمل السكون.. تناديني الأنجم أن أنسج من فنائى، ثوب الخلود، وأن أرى ضآلتى فى حجم الكون، وأتوهم، أنها تخصنى برسالة حكمة، تعيننى على احتمال البقية من العمر.

تدق الساعة معلنة انتصاف الليل.. يرن جرس الهاتف، رنات متعجلة. أستطيع تخيل ألف احتمال، إلا أن تكون «أنت».

«أنت»، فى هذا التوقيت، ومن ذلك البلد البعيد، تطلبنى؟ عفوا، هذا أكبر من كل شطحات تصوراتى.

صوتك وصوتى، مرة أخرى يسبحان معا عبر خيوط المساء؟ هذا غرق فى خرافات، لا تليق بـ امرأة فى سن الثلاثين.

«أنت» فى هذا التوقيت ومن ذلك البلد البعيد، تطلبنى؟ عفوا، هذا جنون لذيذ، برئت منه، منذ اكتشافى أن لقاءنا على هذا الكوكب - من شدة طبيعيته وبديهيته - درب من المحال .

- هل ايقظتك؟

- لم أكن نائمة؟

- : كان لابد أن أتصل بك.. أوحشتينى.

- مضى وقت طويل

- الزمن فى صالحنا.

- لماذا تكلمت؟

- وصلنى اليوم آخر كتاباتك، وشعرت أنك..

- أننى ماذا؟

- وكأنك تنادينى، ترى، هل أنا ملهمك هذه الأيام؟

- أهذا هو سبب اتصالك؟

- بصرف النظر عن شعورى، وأنا أقرأ سطورك، فأنا مشتاق إليك، أعرف أن نهايات العام قاسية عليك، فأردت أن أكون معك.

- لم أعهدك بهذه الرقة.

- كم يحزننى أننا ابتعدنا ولم تعرفى حقيقة شعورى.

امنحينى فرصة أخرى لأثبت لك أننى لست سيئا كما تتصورين .

- جرحتنى مرة واحدة، ولن أسمح لك، أو لغيرك أن يجرحنى مرة أخرى.

- صدقينى، أنا لم أقصد إيلامك.

- أكنت تريد أن تقصد؟ أرجوك، دعنا من الماضى.

- الحاضر هو اشتياقى إليك.

- هل انتهت مهمة سفرك؟

- أمامى أسبوع أخر. لكن باستطاعتك أن تجعلينى أعود قبل الموعد.

- لا أفهم.

- خطرت لى فكرة مجنونة، أن أعود يوم ٣١ ديسمبر، نشهد معا مولد عام جديد، ثم أسافر اليوم التالى.

- هكذا بكل بساطة، تلغى كل ما فات؟

- لن نجد أجمل من ليلة رأس السنة، مناسبة للتصالح، تصورى، أنا وأنت، نبدأ من جديد، مع دقات نهاية العام.

- لقد تغيرت، وحياتى تغيرت معى.

- لكن قلبك لا يزال مشتاقا إلى الدهشة.

- لقد كبرت، وكبر معى ترددى.

- أنا ايضا كبرت، السنوات مرت علينا نحن الاثنان، لا عليك وحدك، بداخلى احساس أن الزمن فى صالحنا. لماذا نبخل على ما كان بيننا، بـ حقه فى فرصة أخرى؟

- وماذا عن قلبك؟

- الإعجاب شىء، والمعايشة العاطفية شىء آخر. لا أنكر أننى عرفت نساء بعدك. كلهن خيوط ضوء، خافتة، أو باهرة، لكن أنت المنارة. وحين ابتعدنا، كنت أشعر أن روحك حولى ترعانى. أنت المرأة الوحيدة، التى اناجيها بكل كيانى، انت المرأة الوحيدة، التى تفهم جنونى، وتحبه.

- شيء غريب، ألم نفشل معا؟

- أهذا هو تفسيرك لابتعادنا؟ ألا تعرفين، أن الإنسان يمكن أن يفشل، حين يكون مؤهلا للنجاح أكثر من اللازم؟

- تفسير جميل أشكرك عليه.

- مشكلتى معك، أننى لم أعثر على الشفرة السحرية، التى تهدينى، إلى أسرارك.

- هل الأمر صعب إلى هذه الدرجة؟

- لو أننى مع امرأة عادية لما شعرت بالحيرة، أنت أكثر من امرأة فى تركيبة غريبة، وفريدة وأنا لست إلا رجلا واحداً، لم يتعود إلا امرأة واحدة فى وقت واحد. كان لابد أن اتعثر. لا تلومينى على وحدانيتى.

- حين تعثرت أخذت بيديك.

- كل منا، كان يبحث عن شيء مختلف. أنا كنت أبحث عن امرأة تعيدنى طفلا، ومعها أشعر بـ حنان الأم. وأنت كنت - ومازلت - تبحثين عن رجل أسطورى، يحلق معك فى أجواء مسحورة، غامضة، مدهشة. وحين يشتاق إلى أن يحبك على «الأرض» تختفين بين السحاب.

- دعنا من الماضى.

- الحاضر هو اكتشافى أنك «كامنة» داخلى، وأن مجرد وجودك معى فى الدنيا حافز جميل، لكى أظل متألقا.. «مبدعا»..وشامخا..

- أنت أيضا لك مكانة خاصة، ليست لأحد سواك.

- هل أطير إليك، ليلة رأس السنة؟

ـ ولم لا؟

ـ مارأيك، هل تأتى إلى المطار، ثم نذهب معا لبدء ليلة التصالح؟

ـ تمنيت كثيراً أن أستقبلك مرة.

ـ سأصل على الطائرة المصرية، الساعة التاسعة والنصف مساء الجمعة ٣١ ديسمبر.

ـ حين التقينا أول مرة، كان يوم جمعة، وكان فى المساء أيضا.

ـ كل شيء عنك، ومعك، يملأ ذاكرتى، وهل تذكرين أنها كانت ليلة ممطرة؟

ـ سأكون فى انتظارك، وفى انتظار المطر.

ـ فرحتى بك مسك ختام العام.

ـ ذهب صوته إلى أفق بعيد، تاركا لى دهشة مرتعشة، ودقة قلب وحيدة، مؤرقة، لا يؤنسها فى ليل الشتاء الطويل، إلا رغبة جامحة فى أن تحتوينى زرقة عينيه.

صحوت من دهشتى، لم تفارقنى منذ رنين الهاتف.. ارتشفت ـ فى صمت ـ تنهيدات الود المؤجل.. سافرت الذكريات حيث لاعزاء، ولا وطن، لـ عاشقة أرخت ستائر الزمان، لا تعانق جرأتها، إلا على الورق.

أيام معدودة، وأراه بعد معاشرة الغياب الطويل، أيام معدودة وأشهد معه، مولد عام جديد.

أشياء كثيرة تمر بخاطرى، ذكريات تداعب خيالى. لكن الغريب، أننى لم أسأل نفسى أهم سؤال .. هل أريد الرجوع إليه؟

لا أنكر، أنه فى وقت ما، اختصر لديه كل أحلامى فى الرجال. مشاعره دائما طازجة، حاضرة، متألقة. فى سلاسة، وثقة، يعبر عنها. الرجال الآخرون - مقارنة به - فاترون. هم مقيدون بألف قيد، أما هو، طاقة توهج جامحة، لا يقف شىء فى طريقها، هو يفكر، يتكلم، يشرد، يحب، يكره يحزن، يفرح، حتى حين يتنفس، يفعل ذلك بـ حماس وحرارة. يرتبك، حين يضطر أن يكون معتدلا، أو حين يجبره اللون الرمادى، على لحظة عناق. أحببته لهذا التوهج، وخفت عليه من ألا يحتمل قلبه، تدفقه النارى الدائم.

ولا أنكر أننى كثيراً ما اشتقت إليه، وتمنيت لو كان باستطاعته، أن يكون فى عمرى، لحنا شارد الايقاع، مرتجل النغمات.

وأعترف أن إحساسه لم يخطئ، وأننى كنت فى آخر كتاباتى، أناجى بعضا من توهجه الجامح، يصد عنى رتابة الناس.

وأعترف أيضا، أن مجرد زيارة عينيه لأفق خيالى، أشتهى الحياة فى أبهى عنفوانها.

لكننى لم أفكر يوما فى الرجوع إليه. ترى، هل يمكن أن أنسى أخطاءه معى، من أجل ذلك التوهج الجامح، لم أجده إلا معه؟ هل يمكن أن أتغاضى عن عيوبه، من أجل لحظات نارية، تمنحنى عنفوان الحياة، بمجرد أن تمسنى لآلئ الفيروز فى عينيه؟ هل باستطاعتى أن أنعم، باحتراقى، دون أن يجرحنى الرماد؟

لا إجابات مؤكدة عندى. الشىء الوحيد الذى أعرفه عن يقين، هو نشوتى المنافسة الكون رحابته، حين - من حيث لا أدرى - تعانق عيناه أفق رؤيتى. نشوة مشعة بـ غموض عذب المذاق، ينتقل بينى وبينه

عبر الهواء. فإذا بنا على الملأ، فضيحة فرح، لا تبغى الستر، ولا تسعى إلى الغفران.

لا إجابات مؤكدة عندى. الشيء الوحيد الذى أعرفه عن يقين، هو أننى فى حالة امتنان دائم للمصادفة التى جمعت زمانه، وزمانى فى زمان واحد. وأننى مطمئنة على مصير الكون، طالما أن سماء واحدة تظللنا معا.

أنهكنى التفكير. لكن شيئا ما، فى نبرات صوته، يشجعنى على الذهاب إليه، دون تردد، ويبارك موافقتى لدعوته.

سأذهب إليه. سأشترى ثوبا جديدا له لون عينيه، وسأتعطر بـ دهشتى لم تفارقنى منذ رنين الهاتف.

سوف أعانق الماء، وأسبح حتى أغرق مرارة «ديسمبر»، ذات المذاق الغامض.

ولسوف أحرص على أن أنهى الموضوع الذى أكتبه عن «أم كلثوم»، فى ذكرى مولدها الذى يوافق ٣٠ ديسمبر،حتى تكتمل ليلتى معك.

ارتحت لهذا الترتيب، فتحت النافذة، أدعو السماء أن تمن بالمطر ليلة رأس السنة. أتأمل تشكلات السحاب، أحن إلى ايقاعات البحر فى عينيه وأتنهد أملا. فتحت المذياع فإذا «أم كلثوم» تشدو بـ أغنيتى المفضلة.. «افرح يا قلبى».

لا .. أيها الكاذب الوسيم

وسيم

أنت، أكثر من قدرتى على الاحتمال..

كاذب أنت، أكثر من قدرتى على التصديق..

وبين وسامتك، وكذبك، متأرجحة أنا إلى درجة تشعرنى بـ الخجل. بين وسامتك، وكذبك، حائرة أنا، إلى درجة تثير رعبى.

بين وسامتك، وكذبك، أحترق آلاف المرات، ولا تكلف نفسك، أن تسأل أين ألقيتُ بـ الرماد. بين وسامتك، وكذبك، يفلت بكاء يسخر من أوهامى، عشتها فى عينيك. ولم تكلف نفسك أن ترسل نظرة مواساة.

بين وسامتك، وكذبك، أسهر ليالى، لا يطلع لها فجر، ولا ينتظرها نهار. بين وسامتك وكذبك تهجرنى ثقتى بـ نفسى. أتحول من كتلة نار، إلى قطعة جليد. أصبح ريشة فى مهب الريح، أعيش حالة حب، دون حبيب، بين وسامتك، وكذبك، تفترسنى علامات استفهام، ودهشة. أكابر قائلة إنى فرغت منك، وأنا يقتلنى الحنين.

ليلة السفر قلت لى عبر الهاتف: سأشتاق إليك..

قلت لك: بعد أن «تفك» حزام مقعد الطائرة «اربطنى»إليك.. ثم اقرأ رسالتى بـ روحك، لا بعينيك.

ليلة السفر قلت لى عبر الهاتف: انتظرينى، سأرجع، ومعى أحلى هدية.

قلت لك: شكراً لاتصالك.. لا أتصور أن تسافر، دون أن أسمع صوتك.

ليلة السفر قلت لى عبر الهاتف: لا تشكرينى.. سماع صوتك، هو جواز سفرى.

قلت لك: لابد أن أشكرك.. منحتنى سعادة، تكفينى حتى تعود.

ليلة السفر قلت لى عبر الهاتف: أنت أيضا تُسعدينني..

وسيم أنت، أكثر من قدرتى على الاحتمال.

كاذب أنت، أكثر من قدرتى على التصديق.

أعرف أنك عدت من يومين. أعرف أنك فى أحسن حال ومزاج. مضى يومان، ولم يأتنى خبر منك. مضى يومان، ولم تفكر فى الاتصال. مضى يومان، وأنا، مرتبكة، مضطربة، لا أفهم هذا الكذب، ولا أعقل تلك المراوغة.

مضى يومان، وأنا عبثا، أحاول أن أجد أى تفسير، لـ هذا الجحود. عبثا، أحاول أن أتقبل، ما أنا فيه من مأزق. كلما دق الهاتف، تسارعت دقات قلبى.. تصبب منى العرق..أرتعش، وأقول «أنت».

يالها من لحظة شديدة القسوة، حين يأتينى صوت آخر غيرك.

لحظة، أغيب فيها عن الإحساس، أغيب فيها عن كل فضائلى. أصبح شيئا، لا قوام له، لاهو بـ الموت، ولا هو بـ الحياة. حين يأتينى، صوت آخر غيرك، أسقط فى هوة عميقة، باردة، معتمة، تصفعنى جدرانها الخشنة، بلا رحمة، وكأننى أنا «الجانية».

مضى يومان. دق الهاتف، عشرات المرات. سمعت كل الأصوات، إلا صوتك أنت. أيها الكاذب الوسيم، أين أنت؟

وسيم أنت، أكثر من قدرتى على الاحتمال..

كاذب أنت، أكثر من قدرتى على التصديق..

ماذا عساى فاعلة؟ لم يعد بى طاقة، للدخول فى لعبة اللف والدوران.

ماذا عساى فاعلة؟ أنا لا أطيق كذبك، وفى الوقت نفسه، لا أستطيع مقاومة وسامتك.

أشعر بـ الحرج. امرأة مثلى أنا، فى عمرى، وخبرتى، وحريتى، تكون ضحية إهمال رجل؟

أشعر بالضآلة. الدنيا الواسعة، كلها عندى. كل الأشياء - لو أردت - يمكن أن تكون رهن اشارتى. ورغم ذلك، واقعة، فى أسر «هاتف»، قد يأتى وقد لايأتى؟

أشعر بـ المهانة. بـ سخاء أعطيته أجمل ما يمكن أن تعطيه نساء الأرض مجتمعة. زهدت فى الوصال. أحببت أخطاءه معى. عشقت فيه ما ينفرنى من كل الرجال الآخرين. احتضنت منه كل شيء، دون

سؤال، وكأننى أحتضن سراً من أسـرار الـكـون. ومـنذ صدفة لقائى بـ عـينيـه، وأنا أشعر بـ امتنان، لا يهدأ له بال، لـ زمان جـمعنى به. ورغم كل هذا، تأتيـه الجـرأة، لإيلامى. رغم كل هذا، يتطاول على إيذائى.

أشعر أنـنى خائـنـة لـ نفسى. كثيراً، ما أنكرت حقوقها عليه، حتى لا أشعره، بأنه مطالب بأى شيء. كثيراً، ما كذبتها، وصدقت تبريراته الواهية. كثيراً، ما خاصمتها لأنها تسيء الظن به.

ما أصعب أن تخون المرأة نفسها، من أجل رجـل، يخونها كل يوم بـ حجة جديدة. ما أصعب ليل الشتاء الطويل، حين يفضح أوهام القلب. وما أصعب، أن تلقى امرأة عاشقة، بذورها الندية، على أرض جرداء.

أرتشف على مهل، الحقيقة التى تعمدت، أن أتجاهلها، مرة، وأنساها مرات. الرشفات حادة المذاق، أصر على أن أكملها، حتى النهاية.

مع الرشفة الأخيرة، يدق الهاتف، يأتينى صوتك.

ياربى، أيمكن أن يكون هناك، رجل بهذا الشكل؟ نصف ساعة، وهو يحدثنى عن نفسه، ومشاكله، كأننى كنت معه، بالأمس القريب. كأن السـفـر لم يكن. كـأن وعـوده لم تكن. نصف سـاعـة، وهو يشكو لى متاعبه. لم يحس بالتعب، تفضحه نبرات صوتى. لم يحس بـ البرود فى ردى. نصف ساعـة، كأنه يتحدث مع زميل له، لا يربطه به، إلا أداء واجب، ولا يعرف عنه، إلا الاسم، ورقم الهاتف. يا ربى، أيمكن أن يكون هناك، رجل بهذا الشكل؟

نصف ساعة، باردة، رسمية، مرعبة، لا تمت لنا بـ صلة. كأن شيئا

لم يكن بيننا. كأن السفر، قد أصابه بـ فقدان ذاكرة. نصف ساعة، يحدثنى رجل غريب، لا أعرفه، ولا أود أن أعرفه.

ذهب صوته بعيداً، وتركنى أسيرة الذهول، والصمت. أستطيع أن أواجهه بـ صورته الحقيقية التى تكشفت لى. من حقى، أن أسائله، وأحاسبه. لكننى ـ وعلى غير ما توقعت ـ لست متحمسة على الإطلاق.

نجح ـ بـ براعة يُحسد عليها ـ أن يفقدنى كل إحساسى. حتى رغبتى فى العتاب. بـ مكالمة واحدة، استطاع أن يحدث داخلى، مالم تكن الدنيا كلها، بـ قادرة أن تحدثه.

مرّ أسبوع، وإذا بـ صوته يأتينى عبر الهاتف. هذا هو الصوت الذى أعرفه.. هذا هو الرجل الذى أحببت.. هذه هى النبرة العاشقة، أسمعنى اياها ليلة السفُر. بكل إشتياق، ولهفة، يتحدث. بكل الكلمات التى تسمح بها اللغة، يعبر عن افتقاده لـ وجودى.. يسألنى عن أحوالى، عن مزاجى.. يعاتبنى بـ شدة، لأننى لم أتصل، طوال الأسبوع الماضى.

وإذا به، يسألنى ما انتظرته، كما لم أنتظر، شيئاً من قبل. إذا به يطلب ما تمنيت سماعه.

تسألنى ـ : هل أراك الليلة؟

ـ ماذا قلت؟

مرة أخرى تسأل ـ : أريد أن أراك الليلة.

ـ هل تقولها مرة أخرى؟

تقول ـ: مشتاق إليكِ، فهل نلتقى الليلة؟

أنا ـ : دعنى أسمعها منك، مرة أخرى.

أنت ـ : أوحشتينى ليتنى أراكِ الليلة؟

ـ مرة أخرى، من فضلك، أعدها.

أنت ـ : ممتلئ بـ الحنين إليك الليلة.

أنا ـ : ممتلئ بماذا؟

أنت ـ : بـ الحنين إليك، الليلة، لابد أن أراكِ.

أنا ـ : وحياة عينيك، قلها مرة أخيرة.

أنت ـ : أوحشتينى. هل نلتقى الليلة؟

أنا ـ : اخرج من حياتى.

تنويعات على لحن اسمه «أنت»

التنويعة الأولى

أسميت الأشياء بـ أسمائها المحتجبة.. نبذت فضائل الناس، واخترت خطيئتي.. كذّبت بديهيات اليقين، وزهوت بـ شكي..

احتميت في عالمي، لا يدخله إلا القلم، والبحر، وهمس الأسرار.. ليس لي أصدقاء، إلا القهوة، وموسيقى القصبجي، وشدو الكروان.. اشتهيت الحياة، إلى حد حرّم خلوتها معي..

غازلت الموت، حتى غار دمي..

آنست لـ حيرة الأشجار..

أطربني سكون الليل..

احتفيت بـ لون الماء..

أبكتنى رحابة السماء..

صليت سراً لإله مختبئ بالأعماق....

وكانت مكافآتى «أنت»

التنويعة الثانية

بـ الورد جئتنى. لا أشواك له، وجرحنى. قبلــك، لم يأتــنى أحــد بـ الورد. قبلك، لم تكن بـ هذا العنفوان ملامـحى. لم أعرف مـثل هذا النزف من الفرح، والنور. ولم ألب دعوة أى رجل إلى مأدبة الجنون.

أطلبك للرقص على أنغام، طالما سهرت مع وحدتى. «أنا»، و«أنت»، و«الموسيقى»، آه من هذا الثالوث الذى يطيح دائما بـ توازنى.

«أنا»، و«أنت»، و«الموسيقى»، تلك خاتمة أمنياتى، وفاتحتى فى سفر الأشجان.

أسألك: لماذا أنت صامت؟

تهمس: «أبحث عن لغة جديدة. ما قلته لكل النساء، لا ينفع معك».

لا تنشغل بـ أمرى. يكفينى وجودك معى الليلة. لاداعى للكلام. ففى الرقص، تسكن كل الكلمات.

كم أحب صمتك، حين يكون رسولا بين قلبينا.

التنويعة الثالثة

أنت فضيحتى التى سترتنى، وأنت السراب الذى هدانى. أتنفسك

لأحتمل الفناء المتربص بى.. كيف فات الزمن، بـ هذه السرعة، وجاء أوان الرحيل؟

ألمح فى عينيك، شيئاً غامضا، لا أدرى لماذا أنت مضطرب، ومرتبك.

أتأملك، وأنت تروح، وتجىء فى المكان. ليتنى أكشف ما بـ داخلك الآن.

لا تمنحنى عيناك إلا الحيرة.

تقترب من حيرتى، و تصب لى كأس الذكرى، ترفع خصلات شعرى، فلا أدرى من أين يأتينى كل هذا التوق للغناء؟

أرجوك، ابق قليلا.

أحتاج بعض الوقت لأميز بين حضور الدنيا بدونك، وحضورها معك.

ابق قليلا، أرجوك.

أحتاج بعض الوقت، لأدرك أين تنتهى متعة الكتابة، وأين تبدأ متعة النظر إليك.

شىء ما، فى الهواء السارى بيننا، يفصح عما تحاول اخفاءه الليلة.

لا تتردد، واعطنى أحزانك.

التنويعة الرابعة

يدور بيننا حوار لم نتوقعه.

أنت ـ : ماذا تريدين من رجل مثلى؟

ـ : لا شيء

أنت ـ : لكن وجودى معك، يفرحك.

ـ : فرحتى بك ممكنة، لأننى مكتفية بـ ذاتى، ولا أريد منك شيئاً.

أنت ـ : لا أفهم.

ـ : حياتى بدونك ترضينى، وتسعدنى، ولا تفقد مذاقها الجميل.

أنت ـ : ما دورى فى حياتك اذن؟

ـ : أنت لحظة بهجة اضافية.

أنت ـ : أنا لست أساسياً فى حياتك، أهذا ما تقولين؟

ـ : أساسيات حياتى بـ طبيعة تكوينها، أنت لا تدخل فيها.. هى صحتى، الكتابة، والموسيقى، وممارسة الرياضة.

أنت ـ : لكننى أريد أن أكون أساسيا فى حياتك.

ـ : أن تكون شيئاً أساسياً فى حياتى، معناه أننى أحتاج إليك. الاحتياج ضد حريتى. واذا خدشت حريتى، لا أستطيع أن أحب.

والاحتياج إليك، هو ضدك أيضاً. لأنه اذا ظهر رجل آخر، يسد احتياجى بـ شكل أفضل، فما الداعى للإبقاء عليك؟

أنت ـ : معنى كلامك، أنك تريديننى، لأنك لا تريدين شيئاً منى.

ـ : نعم ولأننى فى حالة استغناء، أحتاج إليك.

أنت ـ : لا أعرف. حتى لو اقتنعت، فإن الأمر.. .. ..

ـ : أنا وأنت، لم نخلق للعلاقات السهلة، متكررة الحدوث. ثم أليس، كل ما هو جميل، وممتع فى الحياة، بالضرورة استثناء؟

وتحكى ابتسامتك الوقورة، عن أشواق كنت قد نسيتها عندك.

لو فقط تعرف، كم أود احتضان هذا الحياء المتدفق منك، النادر بين الرجال.

التنويعة الخامسة

اهتزت الأرض ليلة الوصال.

احترت فى الأمر، أهذا انذار، أم بركات من السماء؟

كنت أعرف، أن أسرار عينيك، لا تسلم نفسها، ولا تمنح لونها المتبدل، إلا بـ تغير ملامح الأرض. كنت أعرف، أن الفرح بين يديك، قد يعنى الدمار.

كنت أدرك، أن شيئاً ما، فى الكون، حادث لا محالة، حين يلتقى رجل فى مثل توهجك، وامرأة لها انطلاقى.

اهتزت الأرض ليلة الوصال.

أتراها غارت من هزتى معك، حين لمحت، على بساط الحنين بيننا، سر الوجود؟ أو حين اكتشفت فيك، أرضا أخرى، أقف عليها، ولا أتهاوى؟

ليلة الوصال، اهتزت الأرض.

بى حب فضول، لأن أعرف. أكان انذاراً، أم بركات من السماء؟

ما رأيك؟ هل نخاطر، ونرتب لـ مساء آخر..

التنويعة السادسة:

تؤكـد لى، أننى لست واحـدة فى حـيـاتك ولكننى الواحـدة، التى تعرفها.

كاذب أنت، قدر ما تريد أن تكون صادقا. كاذب أنت، قدر وسامتك التى تفقدنى تعقلى. نساؤك كلهن سواء.

هن لا يشتـهين فـيك، إلا الجـسـد المرئى الفـانى. يأخـذن فى ليل محموم، منك الرحيق، ثم يلقين بـ قلبك، وحيداً فى عتمة الطريق.

حزينة عليك.

ألهذا الحد، أنت صيد سهل؟ قل لى، كيف تتحمل ملامحك الوقورة، شهواتك المؤرقة؟ كم أشفق عليك، من اختبارات الرجولة المزيفة.

تعفف أرجوك.

أعزى نفسى، بـ أن «ما بيننا»، هو فرصتك الوحيدة والأخيرة، نادرة الحدوث، لكى تكون شامخا كالجبال، عصى المنال على النساء.

أراهن على «مـا بيننا»، يعـزف على وتر داخلك، لم تمسـه أى من نسائك.

أراهن على «ما بيننا» حتى لا أفقد ثقتى بـ نفسى.

فـأنا لا أحـتـمل فكرة، أننى عـشـقت الرجل الخطأ، أعطيت الرجل الخطأ، وكتبت عن الرجل الخطأ.

وإن سامحنى العشق، والعطاء، كيف أبرئ نفسى، أمام «الكلمة».

إلا «الكلمة».

أتورط أنا، ولا تتورط هى..

أخطئ أنا، وتصيب هى..

إلا «الكلمة».

أنا أتضاءل، ولها الشموخ.

أموت أنا، والحياة لها.

تعفف أرجوك.

لأكسب رهانى على نفسى، وعلى كلمتى، لا رهانى عليك.

التنويعة السابعة

تلملم أشـياءك المتناثرة فى طرقـات روحى، تتلفت حـولك، وكـأنك فقدت ألفتك بـ المكان. نظراتك الأخيرة، المتسرعة، تلتصق بالجدران، وتسألنى ما أتردد، فى البوح به.

يا ربى، ماذا فى هذا الرجل القلق، المتعجل، يستهوينى، وأنا المرأة المتأنية، مطمئنة النفس؟

تجلس بـ جانبى، تمد يدك بـ العبير، تحاول أن تلمس آخر زهور الوداد.

أطلب منك أن تشعل سيجارتى، تسألنى: «لماذا التدخين مرة أخرى».

قلت لك : لا تخف، سيجارة فى حضورك، ونارها من يديك، محال أن تضرنى».

بـ أصابع مترددة، مرتعشة تشعلها.

أقرأ لك آخر كتاباتى. تسافر عيناك إلى أفق بعيد.

لا أدرى، لماذا أحس أنك الليلة، تودعنى، وأن هذا المساء، هو سهرتنا الأخيرة.

هل لأننا الليلة، اكتملنا، والاكتمال هو الوجه الآخر للنهاية، والموت؟

هل لأنك الليلة، أدركت أننى حرة، بـ قدر لم تتعود عليه، وأن حريتى، أكبر، مما تستطيع احتماله؟

هل لأنك الليلة، كنت بين يدى، ومنحتنى أحلى ما تكون ، وأنا حين تأتينى الأشياء، أزهدها؟

ربما كل هذه الأسباب مجتمعة، بـ درجات متفاوتة.

لا أعرف.

لكن بـ داخلى شعور قوى، ينبئنى، أنك لن تأتينى ليلة أخرى، بـ الورد.

بـ أى حق أكتب عنك؟!

التقيت بـ عينيك مرة واحدة.. أتانى صوتك الدافئ مرات قليلة عبر الهاتف.. جمعنا حب الكلمة، ونشوة التمرد على حياة الناس.. أهذه مبررات كافية، لأن أصحو الخميس ١ (أكتوبر) ممتلئة بك إلى حد الجنون؟

دائما يأتينى (أكتوبر) بالمفاجآت.. بينى وبين (أكتوبر) دهشة، وأسرار، وأنغام منسية الإيقاع.. فى (أكتوبر) يمنحنى الخريف شهوة الحنين لأزمنة ماتت بـ قلبى.. يفيض بى نهم لا يهدأ، للعشق والغناء، ومعاندة السماء. الخميس أول أكتوبر، تجتاحنى رغبة الكتابة عنك.. أعرف أن ميلادك فى (أكتوبر) مصادفة يرتعش لها القلم.

صدقنى، أنا مندهشة من جرأتى، لا تلمنى فأنت تناديني. لا حيلة لى، مع ندائك. على الورق لا أملك إلا السمع والطاعة. قل عنى أى شىء.. مجنونة أكثر من اللازم، جريئة أكثر مما ينبغى.. أنت تدرك أن لا فن بدون جنون، وبدون جرأة.

أنت أحببتنى كـ فنانة.. إذا لم أصل معك أنت، إلى أقصى الجنون، ومنتهى جرأتى، فـ على الدنيا السلام.

من أين أبدأ حكايتى معك؟ حكاية غريبة، لا سبب لها، ولا منطق فيها. حكاية محلقة فى الهواء، لا تعرف لها أرضا، ولا تحدها رحابة السماء.

دعنى أبدأ من ارتباكى الذى يشاركنى فيك. منذ اللقاء الأول، وشىء من الإرتباك ينتصف المسافة بيننا. ارتبكت حين رأيتك لأول مرة.. وأرتبك فى كل مرة، نتحادث عبر الهاتف.. هل عندك تفسير، لماذا ترتبك امرأة أنضجها الزمن قبل الأوان، حين تلقى رجلا لايربطها به شىء؟

أنا المرأة، لا يستهويها الرجال، ولا شىء يحمسنى للخروج من شرنقتى، استهوتنى نظرات عينيك، وتحمست لـ دفء صوتك.

شىء ما فى الهواء العابر بينك وبينى، يثير شهيتى لـ فرحة غائبة.

من أين أبدأ حكايتى معك؟

يدهشك كلامى، أليس كذلك؟ فـ أى حكاية يمكن أن تجمعنا، وكل منا فى طريق؟ أى حكاية يمكن أن تمسنا، وأنت الرجل المسافر دوما، وأنا المرأة ساكنة المدار؟ أى حكاية تستريح معنا، وأنت الرجل المتعجل، وأنا المرأة المتمهلة؟ واعية بالمسافات الفاصلة بين رقتك، وخشونة حياتى. لكن أشياء كامنة بيننا، لا تتركنى لـ حال سبيلى.

غموض لذيذ، ينتظرنى على نبرات صوتك. فـ كيف لا أحن إليك، وأنا امرأة الغموض والغرابة؟

عشت الأيام الماضية بين سطورك.. تعرفت عليك أكثر من خلال كلماتك.. أحلامك تقارب أحلامي، وبعض أفكارك امتداد لأفكاري.. قرأتك علّني أنهي حالة الارتباك التي أحسها معك.. فإذا بي أكثر ارتباكا.. قرأتك، علّني أرتاح، فما كان مصيري، إلا المزيد من الأرق والدهشة.

بـ الأمس، الأربعاء آخر أيام سبتمبر، كنت بـ صحبة بعض الأصدقاء. داعبتني نسائم الخريف، تنساب في الهواء أغنيات الحب والأشواق.

وفجأة، اقتحمت المكان، وقفزت ملامحك إلى خيالي. بـ أي حق، تنتزعني من أصدقائي؟ مَنْ تكون لـ تفسد استمتاعي بـ سهرتي، وتجبرني على مناجاتك؟

لا شيء يربطني بك، لا شيء يربطك بي، فـ لماذا تصر على ملاحقتي، وأنا أنفض سبتمبر عني، وأتهيأ لأجمل شهور العام؟

تركت سهرة الأصدقاء، وحلو الأغنيات، وجريت إلى شرنقتي غفوت حائرة، كيف أحتضن ملامحك في نومي، وخيوط اليقظة كلها متقطعة بيننا؟

خضعت لاجتياحك في أول أيام أكتوبر، دون أدنى تردد. ولماذا أتردد؟ وحياتي كلها سلسلة من المشاعر الغريبة، المتناقضة. كيف أتردد، وفرصتي الوحيدة في الحياة، هي ما أخطه على الورق.

ربما تسألني ما الذي أريده منك؟

لا أعرف على وجه التحديد.

قد تكون رغبة فى الاكتشاف. ماذا فيك يؤرقنى، ويربكنى؟ لماذا بدون أى منطق أو استئذان، اخترقت عزلة أيامى؟ وكيف سمحت لك، بأن تشاركنى فرحتى بـ الخريف؟

لست أريد الحب. فأنا قد زهدت مشاعر العشق والغرام. وأتعبتنى تلك الكلمة الخادعة.

لا أريد الصداقة. فالصداقة تعنى نوعا من الحياد، لست مؤهلة له معك.

دعنا نبحث عن صيغة جديدة، تجمعنا. لنهجر كل المشاعر التى أثقلت البشرية بالقيود، والأوهام. لنبدع علاقة بين رجل وامرأة، لم يسبقنا إليها أحد.

مللت الأحاسيس المنصوص عليها فى الكتب، والروايات والمدن الفاضلة. أنا هاربة من زمن المشاعر المعلبة، والعلاقات المصنفة سلفا.

رجل مثلك، لابد أنه عرف الكثير من النساء. منهن مدعيات الفن، أو الأنوثة، أو الحب.

إننى امرأة متفردة فى جنونى، ومطالبى، وأحزانى.

أنت تعلم أن الفن يحتاج إلهاما. كل قصة كتبتها كان وراءها ملهم ما.

لست أدرى ما الذى يحدث للرجل حين يجد نفسه، ملهما لـ قصة، أو قصيدة شعر. واحد يشعر بالذعر، فـ يتعمد تجاهل القصة والاختفاء من حياتى. واحد يستكثر على نفسه أن يكون ملهما لـ فنانة. واحد يلومنى على خيالى الذى تجاوز الحدود. واحد يبحث بين السطور عن نزوة عابرة.

لا أحد منهم فهم معنى الإلهام فى الفن. كل قصة كتبتها ماتت فرحتى بها، يوم ولادتها. لم ألق الملهم الذى يشاركنى دهشة، وفرحة الكتابة عنه.

هل أنت واحد من هؤلاء الرجال؟ أو أنك استثناء؟

دعنى أصارحك بـ خيبات الأمل، التى أدمت روحى، وجسدى. كل قصة ألم جديد يتسلل إلى المسام. قصصى هى جروحى الموقعة بإمضائى، النازفة بـ دمى.

لست أدرى هل أنت مهيأ لكل هذه الصراحة؟

أحس أنك تفهم معاناتى.. دعنى أسترسل علّنى بين يديك، أنسى وجعى. أتعرف ماذا كان من ملهم قصتى الأخيرة؟ بادلنى المشاعر الرقيقة، بالصمت الخشن. قرأ ما ألهمنى إياه فى برود، وحياد. قابلنى وكأننى اقترفت جريمة أو إثما، لابد أن أتطهر منه.

لماذا أحكى لك عن جروحى، وخيبات الأمل التى تحاصرنى أينما ذهبت؟

لماذا أشعر أنك لست كالرجال الآخرين؟

لا أعرفك بالقدر الكافى، لأبرر شعورى هذا . لكن ماذا يهم الزمن؟

لقاء واحد مع رجل مثلك، كاف جدا لأن تستيقظ الأشياء من مواتها. هاتف واحد مع رجل مثلك، يكفى جداً، لإشعال البرق. أرجوك اقرأ قصتى، بكل الاختلاف الذى تود أن تكونه. اقرأنى بـ عيون الرجل الذى لم تعشه بعد. اقرأنى بـ رقة فأنا متعطشة لـ رجل رقيق.

لست أدرى بـ أى حق أكتب عنك؟

التقيت بـ عينيك مرة واحدة .. أتاني صوتك الدافئ مرات قليلة عبر الهاتف.. جمعنا حب الكلمة، ونشوة التمرد على حياة الناس. أهذه مبررات كافية لأن أصحو الخميس ١ (أكتوبر) ممتلئة بك إلى حد الجنون؟

ما

أحلى الحيرة، وقد امتزجت بـ الهواء السارى بينك وبينى..

ليلة الأمس معك.. أين كان القدر يخبئها لى؟ لو تعرف، كم عذبتنى ليلة الأمس. عذاب منح أيامى حلو المذاق، وأخذ بـ يدى إلى جنتى المفقودة.

لو تعرف، كم من المرات متُّ، ليلة الأمس، كلما التقت عيوننا، أو مرت كلمات على شفاهنا. موت أعاد لـ حياتى الخاملة ارتعاشات الوهج، وجموح الدهشة.

لو تعرف، كم طالت مناجاتى لك ليلة الأمس. همست لـ عينيك، كلام الحب الذى أعرفه.. ناديت شفتيك، بـ أشواق عمرى الضائعة..

لم أنم ليلة الأمس.

أسلمتك للنوم الهادئ، وتركتنى للسهر والأرق.

لو تعرف، ماذا كانت ليلة الأمس..

كنت مشغولا بـ ضيوفك، وكنت أنا مشغولة بك.

أنا ضيفة فى بيتك مثل الآخرين. لكننى شعرت أنك أنت الضيف.

منذ أن عرفتك، والفرحة تغمرنى كلما التقيتك. لكن فرحة الأمس، كانت شيئا مختلفا.

شيء جديد، خفق له قلبى، وارتعش معه جسدى.. تتكلم.. تضحك.. تهزر.. تصمت.. أتأملك كأننى أراك للمرة الأولى.

حقا إنها المرة الأولى.

أهذا أنت، الذى قابلته مصادفة منذ شهور؟رجل آخر، أراه فيك الليلة.. رجل له رقة النسيم، وعذوبة قطرات الندى.. رجل فيه شموخ السحاب، ورحابة المدى..

تسرى بيننا موجات سرية الاشتهاء، مترددة الإيقاع.

كلامك، تصرفاتك، نظراتك، توحى بـ أنك تحمل لى إعجاباً خاصاً. لست مؤرقة بـ مشاعرك نحوى.. فأنت حر تماما..تؤرقنى مشاعرى، التى فاجأتنى ليلة الأمس.

فجأة، وبدون مقدمات أقفز فوق جسور الصداقة، أعبر المسافات الشائكة بيننا، وأطالب بـ حقى فى ليلة حب معك.

فجأة وبدون مقدمات تحولنى ليلة الأمس من صديقة إلى عاشقة.. فجأة وبدون مقدمات، كل شيء تقوله يمسنى حتى الأعماق.. كل شيء تفعله، له بريق.

لن أسألك عن المرأة الأخرى. أعرف أنك معجب بها.

هى الأخرى تعاملك بـ خصوصـــية واضحة، ودلال لا يتخـفـــى. بـ سخاء تقدم لها واجب الضيافة، وأرق الكلمات. حينما أوشكت على الرحيل، تركتنا، وقمت تودعها من مدخل البيت حتى مكان سيارتها.

أهى حقا تعجبك؟ أتلك المرأة ذهبيـة الشعر، الملونة بـ المساحيق، تغطى ذراعيـها بـ الأساور، وترتدى الشفاف من الثياب، نوعك من النساء؟

لا أعـتـقـد أنك يمكن أن تكون جاداً. أنت تمنح حلو الكلام، ورقـة اللمسات لأية امرأة تصادفها. هل عرفت لماذا لا أفرح حينما تقول لى كلاما جميلا؟

أرى بـ داخلك رجـلا شامخ الإحساس، ينتظر أن تطلق سراحه. لايخالجنى شك أنك رومانسى العاطفة، مرهف القلب.

أرى الجزء الجميل المختبئ فيك، ألمح الضوء المشع من قلبك رغم قسوة الزمن.

أرجوك، فك الحصار عن الرجل الآخر المسجون داخلك. إنه هذا الرجل الذى أضاع حيادى، وله دق قلبى ليلة الأمس.

من البحر جئتنى، فلماذا تزعجنى تقلباتك؟ أغرقنى أكثر وأكثر فى مفاجآت الماء. لا تتردد، وألق بى إليك، فأنا أجيد السباحة، ومعاندة التيار هوايتى.

من البحر جئتنى. ما أجملك من شاطئ، ترسو عليه أيامى المتعبة، وما أروع العلاقة مع رجل من ماء.

من البحر جئتني. خذني إلى الأعشاب الملونة، ورشاقة الأسماك. حدثني عن موانئ العشق، وسفن الأشجان.

من البحر جئتني. ارقص معي على صفحة الأمواج، واقرأ لي حكمة الصخور. خذني إلى عمق الأعماق. ما أحلى اللقاء تحت الماء.

جئتني من البحر. دعني أغتسل من الركود والرتابة، واقلع بي إلى الدهشة والعنفوان.

خذني إلى منتهى نشوتي، ولا تسلني هل اكتفيت، أم أرغب في المزيد؟

ترى هل أحب وأعشق الرجل أم الفنان؟ أحب فيك الرجل وأعشق الفنان. اشتياقي للرجل، ولهفتي على الفنان.

أتذكر اهتمامك بي ليلة الأمس. وأتذكر اهتمامك بـ المرأة الأخرى. رغما عني أتساءل همسا: «مَنْ التي في قلبك؟ مَنْ التي تستأثر بك؟ مَنْ يا ترى حبيبتك؟

هل تقبل اعتذاري؟ لقد خنت اتفاقنا على الصداقة. تعاهدنا على مشاعر أخوية لا أكثر ولا أقل. عفوا.. لم أستطع الوفاء بـ عهدي.

رقتك ليلة الأمس، أقوى من سيطرتي. سحر صوتك يذيب أي اتفاق. فلا تلمني لو هجرتني مشاعر الأخوة، وانطلق العشق مغرداً في أفق المحال. لا تلمني لو على أنغام شفتيك رقصت أنوثتي المقعدة سنوات. لا تلمني لو على يديك، تمنيت الاسترخاء.

ليلة الأمس، شردت مع يديك. كم هي جميلة يداك. يشع من أصابعك نبل طالما بحثت عنه. تناديني يداك. دلني على مصيري.. أرحل، أم ألبي النداء؟

أنا مثلك، لا شيء يهمنى إلا فنى، لكن للقلب أحكام تأمر فـ نطيع.

لا تخف من دقات قلبى. لست ملتزما أمامى بـ شيء. استمر أنت فى مشاعرك الأخوية، ودعنى وعشقى.

استمر أنت فى حيادك، ودعنى لـ تورطى. من حقك ألا تبادلنى دقات القلب. ولكن ليس من حقك، أن تخرس العاشقة المولودة ليلة الأمس.

ليلة الأمس معك، أين كان القدر يخبئها لى؟

أحبك أيها الفنان، يا مَنْ يؤمن أن الفن لا يُشترى، ولا يُباع..

أحبك أيها الرجل الذى يفضل أن يحرق عمره بالسجائر، عن أن يحرق، كرامته، أو موهبته.

ليلة الأمس معك، أين كان القدر يخبئها لى؟

استمر فى مشاعرك الأخوية، ودعنى وحدى هائمة فى نعيم ليلة الأمس.

يستهوينى كثيراً، الحب مع رجل لا يفكر فى الحب.

أعرف أنك ضد النساء، وضد الحب. لكننى - ويالحظى العاثر - امرأة وأحببتك.

وأعرف أن خيبة الأمل هى محطتى الأخيرة معك. لكننى امرأة لايستهويها إلا القضايا الخاسرة، ولى تاريخ طويل مع الرجال الخطأ.

أحيانا أتساءل ماذا لو التقينا فى زمن آخر؟ ماذا لو تبقى فى قلبك شيء من الحب؟ ماذا لو كانت الدنيا حولنا غير الدنيا؟

«أنت» تجربة جديدة فى الألم، سأخوضها وحدى.

نعم، أصبح رؤياك ممتعا إلى حد الألم. ومريحاً إلى حد الوجع.

رغم الألم، والوجع، أشكرك على ليلة الأمس، التى طهـرتنى من لامبالاتى، وألقتنى لـ عنفوان الرعشات.

رغـم الألـم، والـوجع، أشكرك على وجودك، الذى مـلأ حياتى بـ تفاصيل صغيرة، تلازمنى فى صحوى ومنامى.

وشكراً على صدفة اللقاء الأول، وعلى صوتك المسافر إلى مـا بعد السماء.

خذنى إلى قلبك

أول

يناير، واشتهائى الفائر. ثالث أيام رمضان، صائم أنت عن الزاد، وصائمة أنا عن الفرح دونك..

التقينا..

إلى اليمين، أشجار وارفة الحنين..

إلى اليسار، صمت، شجن، وأنين..

فى المنتصف، هواء مرتبك النسمات، كبرياء على سفر، نغم فى القلب متلعثم الايقاع، سحابات مترددة المطر.. فوقنا، منام عصى اليقظة ليس يفسر..

تحت أقدامنا، ألغام التطفل والمنطق..

التقينا..

على شفتيك، نداء رقيق «اقتربى»..

فى عينيك، أمر صارم «ابتعدى»..

ما بين نداء شفتيك، وأمر عينيك، تنزف خطوتى. ماذا أفعل؟ دبرنى أنت، أيها الرجل المنتشى بـ تعذيبى، المختال بـ تورطى اليائس.

أنحاز لـ شفتيك، أم لـ عينيك؟

ماذا أفعل؟ كن منارتى إلى دربك المعتم.

وكن خريطتى إلى كهفك المسحور.

نعم، سحرتنى ولا أمل لى، فى الرجوع إلى حياتى قبلك، فاقدة السحر، والنبض.

التقينا..

خلعت عنك ابتسامتك الملتحفة بـ الزى الرسمى، ارتديت ابتسامة العشاق، فأصبح للمحال ألف امكان. هجرت الصمت، فـ تعطر الكلام بـ صدق النبوءة.

نطقت اسمى، فـ أدركت أن الوطن كلمة منسية على شفتيك.

التقينا..

تسألنى: «ماذا تشربين؟»

قلت: «أى شىء له مذاق ملامحك».

تسألنى: «الضوء خافت أكثر من اللازم؟»

قلت: «الظلام فى حضورك مبهر الضياء».

تسألنى: «أراك ترتعشين، هل نذهب إلى مكان أكثر دفئا؟»

قلت: «نعم إلى قلبك»

قال «ماذا يستهويك فى قلبى؟ إنه أرض قاحلة، موحشة، لا زرع فيها ينمو، ولا طير يشدو. أتعبنى كثيراً هذا القلب. أتحمله، وأعيش به فهو قلبى أنا. ما ذنبك أنت؟ اتركينى وقلبى»

قلت: «خذنى إلى قلبك».

قال: «ماذا تريدين من رجل فى خريف العمر؟»

قلت:«أجمل الزهور ما ينبت فى الخريف»

تسألنى: «لماذا أنا، والرجال طوع يديك؟»

أقول: «لماذا أنت؟ هل يسأل الكروان لماذا يهوى الغناء، والبحر لماذا يعانق الماء؟»

التقينا..

على مهل، أتأملك، لأول مرة دون احساس بـ أننى آثمة.

اكتشفت لون عينيك، طالما حجبته عنى.. ارتميت على صوتك فضى الحنان.. على يديك، ألقيت غربتى وأحزانى.

لا ترهق نفسك بإختيار الكلمات. صوتك لحن يدوخنى، يطوف بى ما بعد السماوات، يراقصنى على بساط من نغمات، يشعل النار فى جسدى أطفأته السنوات.

التقينا...

عذبتنى. أهرب منك، ألقاك أكثر. حين أتعمد الكذب، أصبح أكثر صدقا. كان اعترافى بـ أننى على خير، يستنزفنى أكثر.

لم يؤلمنى رجل مثلما آلمتنى.. لم يفرحنى رجل مثلما أفرحتنى.

التقينا..

أول العشق أنت، وآخر الأشواق..

التقينا..

لك مذاق الشجن ورشاقة الذكرى..

التقينا...

تسألنى «أما زلت ترتعشين؟»

سكت عن الكلام.

أخذتنى إلى قلبك.

ملهمى المتوهج كرهتك

دعنى

أحبك ليلة واحدة، ولأمنح الموت بعدها سر انتهائى

لا أتوق إلى الرحيل، عن ذنوبى، إلا وأنا بين شفتيك .

دعنى أهبك وحدك، عصارة كل النساء، حين بالوصل العنيد تحن ذات مساء.

يا أنت، يا عذابى المنقوش بـ ماء قدسى على جسدى.

يا أنت، يا ساحر روحى..

«أنت» أيها الخمر اللذيذ، أقرته الآلهة لى، وحرّمته أنت علىّ.

«أنت» أيها الشيطان الرجيم الذى علمنى الفضيلة.

يا أنت، خذنى ليلة واحدة، إلى فتنتك، التى أضاعت هيبتى، ولتعلن بعدها، على الملأ، فضيحتى معك .بعد صومى الطويـل عـن الرجال، لا أحد يداعب شهيتى إلا «أنت».

ليلة الأمس، رأيتك.

يا إله الكون المختبئ عن الأنظار، قل لى، كيف خلقت رجلا بهذا الحضور الساطع؟ قل لى، كيف مزجت الأرواح، والأشياء، لتصنع رجلا بهذا الجمال الأخاذ؟ يا إله الكون، كيف تخرج من يديك الرحيمتين، وسامة بهذه القسوة؟

لماذا ترتب الأقدار بمشيئتك لأتعثر فيه، هو، ولأحترق به، هو؟

لماذا يا إله الكون، والعدل اسم من أسمائك، لا تجعلنى أحس بـ نعيم الدنيا، وما فيها، إلا مع من يظلم قلبى، ويجحد عشقى؟

يامن عرفناه بالعقل، لماذا أنعمت عليه، بـ جنون متوهج، يعطيه حق الدلال المطلق، على اشتياقى الذى أنهكه التعقل؟

لماذا يا إله الكون، تجعلنى أسيرة خصلات شعره الفضية، وأنت نذرتنى للحرية؟

ليلة الأمس، رأيتك.

- الرجال يملأون المكان، لكننى لم أبصر، ولم أحس،سواك.

يا للمفارقة التى تدمينى، وأنت عنى غافل!

فكم أنت قريب جداً، هذه اللحظة! وما أبعدك!

وكم هى، مراوغة تلك النظرات المسافرة! لا أدرى، أكنا نمارس الحب، على الهواء المخادع الواصل بيننا، أم كنا نرتشف مرارة العتاب؟ هل كنا نتبادل حديث الشوق، أو حديث الهجر؟ هل كنت ترجونى العشق، مرة أخرى، أو كنت تسألنى البعاد؟ وأنا، لماذا لا أقاوم البكاء، كما لمحتنى عيناك؟ لماذا، رغما عن تاريخ الألم معك، مازلت أراك

نصيبى من الفرح، انتزعته منى نساؤك العابثات؟ لماذا معك فقط، تتفجر ينابيع دهشتى، وأرجع عفية، إلى مصب عنفوانى؟

لابد أننى، قد فقدت رشدى، وصوابى. بأى اسم من الأسماء، وأنت الأرض الخراب، الجرداء، لا أريد أن أثمر، إلا عليك؟

لابد أننى، قد فقدت أيضا كرامتى، وعزة نفسى. كيف، وأنت أمامى الآن، أرغبك، وأنت الفنان البارع، فى اجهاض رغباتى الماضيات؟

أراك تبتسم لى.

أرد ابتسامتك، بـ صمت يهفو إلى كلمة منك. أرجوك، فسر ابتسامتك. أعرف جيداً أن عطاءك عصى المنال. إذا ابتسمت فلابد أن الدافع أكبر من عناد شفتيك.

لن أجازف، وأتنبأ بالتفسير. علمتنى الأيام معك، أنك ضد كل تنبؤ.

رغم حلاوة ابتسامتك، لن تغرينى بالمخاطرة. غلطتى معك، أننى دائما، كنت أتوقع منك شيئا. تجاهلت نصيحة «ديوجينس»، أحد فلاسفتى الذين أعشقهم، حين قال: «كلما قلت توقعاتك قل ما تصادفه من خيبة الأمل»

معك، ما أكثر توقعاتى، وما أكثر خيبات أملى. لكننى لم أكن لأتراجع. ظللت أرتشف من خيبات الأمل فيك، وكأننى أرتشف رحيق خلودى.

يا ربى، ما كنه هذا الرجل، الذى تكون لـ خيبة الأمل فيه طعم أحلى من تحقق الأمل؟

مازلت أمامى، تمارس طقوس التعذيب.

كرهتك وبسببك أنت، كرهت لأول مرة، مزايا حياتى.

كرهت حريتى الفالتة من كل أنواع القيود. كرهت عجزها عن الإتيان بك. كرهت لذة الحرية، لأنك لست طرفا فيها. كم هى، ماسخة المذاق، حريتى، بدونك!

كرهت شبابى. ما جدواه وهو لم ينجح، فى الابقاء عليك. ولم تثر نضارته، حب الفضول لديك؟

كرهت الكتابة، لأنها تستنفذ أجمل ما أكون، وأنت لم تعد تبالى، بأن تقرأنى.

كرهت الورد، وأنا التى شهد الربيع مولدها، لأنك كنت تجيئنى به، فى أمسيات الوصال.

والشرفة الواسعة، المطلة على «النيل»، كرهتها، لأنها لا تضمك بين أركانها.

كرهت زعمى أننى فنانة، وأنا يعوزنى فن استحضارك.

كرهت أثوابى الأنيقة، لأنها لا تغريك بالخروج معى .

كرهت قلبى الذى فشل وفاؤه، فى إغوائك بالطواف حولى.

وكرهت عشقى المجنون بالموسيقى والغناء الذى يقربنى منك.

كرهت رومانسيتى طيبة النوايا، تصدق وسامتك، وتكذب نزف روحى. كرهت سكون الليل، الذى يسألنى عن رقصتنا الرشيقة، حدثت مرة، فى الليل. وكرهت كل الناس، الذين تبدأ أسماؤهم، بـ حرف اسمك.

كرهت مروری العابر، من أمام ذلك المطعم الهادئ، حيث جمعنا أول عشاء، على ضوء الشموع. كرهت تشابهنا الزائد على الحد، الذى يفرقنا.

كرهت كل الرجال، لأنه لا أحد منهم، قادر على أن يعوضنى عن غيابك، أو أن ينسينى زمان هواك.

كرهت نضج حكمتى المبكر، الذى استشرف فى عتمة أحضانك، نقطة ضوء، أعمتنى عن رؤية أى رجل غيرك.

كرهت اللون الرمادى، الراقد على خصلات شعرك، وشعرى، لأنه يزيد من تشابهنا.

كرهت طول قامتى، لأنه لا يستثير فيك متعة التسلق.

كرهت بيتى الريفى، المحاط بالماء، والخضرة، لأن وجهك الحسن لا يسافر معى إليه.

كرهت مجيئى إلى الدنيا، لأنك لا تتذكر أبدا يوم ميلادى.

وكرهت سباحتى اليومية تحت الماء، لأنك لا تنتظرنى بعدها، لتجفف الحنين إليك.

كرهت لغتى التي تزهو بقدرتها على التعبير، وحين يكون الأمر متعلقا بك، تطلب العون.

كرهت كل قصة، كنت أنت فيها ملهمى المتوهج، لم تزدنى إلاحسرة، لم تزدك إلا غروراً.

وكرهت رغد العيش، الذى أحياه، يجلب لى كل المتع، وعندك أنت، يرفع الراية البيضاء.

كرهت القمر، أنيسى فى ليالى السهر، ولم يخطر له ليلة واحدة، أن يكون رسولا، يشفع لى عند قلبك.

وكرهت صحتى، كيف وهى التى فى أوج اكتمالها خانتنى، وسمحت لك بالتسرب إلى دمى، لتكون دائى، الذى لا أبرأ منه.

كرهت رحلاتى المتعددة حول العالم، لأنك لم تعد تهتم، بتاريخ سفرى، وعودتى، فى حين أنك لا تتورع، عن إرسال عينيك ورائى، فى كل المطارات والموانى.

وكرهت ولعى بـ «النار» وإيمانى بأنها جوهر الكون الأصلى. لولا هذا الايمان، والولع، ما لهثت وراء كيانك دائم التوهج.

وكرهت أننى يوما صدقت، فيلسوفى الجميل هرقليطس، حين قال: أنت لا تنزل فى النهر الواحد مرتين فالتغير الدائم هو القانون الأبدى.. لا شىء ثابت».

فها أنا أنزل فيك للمرة الألف. وها أنا، أغرق للمرة الألف، فى الرجل الواحد نفسه.

ليلة الأمس، رأيتك.

كنت على موعد، مع كل شىء كان منك. وقد اعتقدت أنك إلى غير رجعة أصبحت على هامش أيامى، وذكرياتى.

كنت على موعد، مع أنفاسى التى تتنهد رائحتك، وقد اعتقدت أننى

انتزعتك، مرة وإلى الأبد، من الهواء السارى.

«كنت يوما محسودة»، لأنك اخترتنى فى أحد مواسم الشتاء، من بين كل النساء، لكى تهدينى موسمك، وتمطر على أرضى.

«كنت يوما محسودة»، لأنك تحملت مشاكستى وعاملتنى كطفلتك المدللة، وأنت المشهور، بعنادك، ونفاد صبرك، ومشاغلك الكثيرة.

«كنت يوما محسودة»، لأننى المرأة الوحيدة، التى لم تشرب معها ما يدير رأسك-قلت لى : «وأنا معك»، لست فى حاجة، إلى كأس، تصب لى الألفة، وتوحى لى بالانسجام».

«كنت يوما محسودة»، لأننى الوحيدة بين نسائك، التى تمتلك وسيلة تخلدك. كل سطر كتبته من إلهام وسامتك النارية، أدخلك إلى ذاكرة الأدب، ومنحك عرشا مرموقا، بين صفحات تاريخ العشق.

«كنت يوما محسودة» لأننى أحمل فى أحشائى صورة طبق الأصل منك، دون حاجتى لأن ألقاك، ودون حاجتك لأن تلقانى.

«كنت يوما محسودة»، لأننى فى زمن صفقات المشاعر، أحببتك لوجه الله تعالى.

قل لى، من فى حياتك الآن؟

من تكون تلك المرأة، التى أزاحتنى من طريقها، وأخذت مكانى؟ وأنت، من أين أتتك الجرأة، لأن تستبدلنى، وأنا مازلت حية أرزق؟

أم تراك بعدى، قد زهدت النساء، واكتفيت بالعمل، ليل نهار؟

لا أستطيع كشف حال قلبك، وأنت أمامى الآن.

كل الذى أراه نار متأججة، أشتهى الاحتراق فيها، وإن تنازلت عن الباقى من عمرى.

لست محايدة تجاهك، حتى أتوخى الدقة فى ملاحظتك، لأعرف هل أنت على حب؟

يمنعنى تورطى، من تعقب بصمات امرأة غيرى على ملامحك. يمنعنى كبريائى من اكتشاف أخرى، ترقد على أصابعك.

على كل امرأة، تأتى بعدى، أن تحذر لعنتى. إياها أن تقترب من حدودى فيك. إياها أن تفكر فى اقتلاع جذورى، أن تشدو على أنغامى، بصوت يشجيك.

أسدل ستار المرارة.

أبتلع حسرتى الموحشة، وأنا أرقب خيالك يبتعد.

يا ويلى من صحبتك الليلة.

وكان «الماء» ثالثنا

لم أتصور حين التقينا أول مرة، أنك ستحدث هذا الفرق الهائل في حياتي.

لم يخطر ببالي، أنك ستنسيني كل دقة قلب، كانت لغيرك، وأنني في حضورك المبهر، سأبدأ في تعلم الرجال من جديد، وفي التلعثم من جديد.

حين رأيتك أول مرة، لم يكن في نيتي، الوقوع مع أي رجل، ومعك أنت بصفة خاصة. فكل شيء فيك لا يلائم طبيعتي، وظروفي، ونمط حياتي. حين مددت يدك بالسلام، أدركت ضراوة الحرب التي تنتظرني.

أحببتك وكيف لا أحبك، وقد جمعنا، «الماء»، في أول لقاء؟ كيف أتفادى التورط معك، وقد كان، «الماء»، ثالثنا منذ المقابلة الأولى؟

أنا وأنت و «الماء»، ثالوث من المحال أن يبقيني عاقلة.

إذا لم أذب معك، الآن ، فلا أمل لي في الأفق. أنا وأنت و «الماء»،

كيف يظل القلب فى مكانه؟ وكيف لا تقفز من داخلى، عاشقة تودع زمن الجفاف؟

سبحنا معا فى أول لقاء. لا أدرى هل كنت أحتضنك، أو أحتضن «الماء»؟ لم أعد أميز، أين يبدأ جسدك السابح، وأين يبدأ «الماء». كأننى كنت أسبح فيك، لا أسبح معك.

«الماء» وحنان الشمس، ونقاء السماء، وحلاوة عينيك، غارقة أنا لامحالة، ولن أطلب النجاة.

سبحنا معا فى أول لقاء. ايقاعك هو إيقاعى، أنفاسك هى أنفاسى. نتوقف لحظة، نبتسم، نتبادل كلمات قصيرة، ثم نكمل السباحة.

قطرات «الماء» على وجهك، ترسم لوحة بديعة التكوين.

سبحنا معا مثل سمكتين.

وياللمعجزة، لم نمت حين خرجنا من «الماء».

أحببتك. نقطة ضعفى الكبرى، رجل على علاقة حميمة «بالماء». يستهوينى الرجل الذى يسكنه المطر، وتطرق مسامة قطرات الندى. لا أستطيع أن أحب رجلا فى خصام مع أمواج البحر. العشق مستحيل مع رجل لا يمنح «الماء» كل يوم مساحة، من الوقت، والحوار والتأمل. كل احتمال للود مفقود، مع رجل يعجز عن عناق «الماء».

بداخلى قناعة، أن البشرية تعيسة، لأنها لا تقدس «الماء»، ولا تعرف كيف تكون هى و«الماء» على وصال.

أؤمن مثل الفيلسوف طاليس، أن «الماء» هو أصل الحياة. فكيف لا أحبك وقد دعانى إليك فى أول لقاء؟

كم هى ممتعة السباحة معك، كم هى مريحة استضافة «الماء» لنا.

لأنك معى، منحنى «الماء» بعضا من أسراره. لأنك معى، طال النهار، وتعطلت الشمس عن موعد الرحيل.

منذ لقاء «الماء» ، وأنا أبحث عنك. أتوق إليك فى «الماء»، مرة أخرى. أصبحت السباحة بدونك دوامات من السأم، تسحبنى إلى شاطئ الحسرة.

أين أنت؟ كيف تجرؤ على هذا الصمت المرعب، بعد حديث «الماء»؟

أين أنت؟ كيف ارتضيت عنى الفراق، و«الماء» قدرنا منذ أول لقاء؟

أنتظر رؤياك اليوم، غداً، أو بعد عام. وحين ألقاك سأصارحك بكل شىء.

أنتظر رؤياك مرة أخرى، على مقربة من «الماء». لن أتردد كعادتى. سوف أدعوك إلى مشروبك المفضل، فى ركن هادئ تغطيه الأشجار، وتحرسه عيون «الماء».

لن يهمنى أى شىء. ما يشغلنى هو أن أطلق سراح مشاعرى المتراكمة منذ لقاء «الماء».

لست مرتاحة، فأنا لا أجيد لعبة المراوغة، ولم أتعود إخفاء تحيزات قلبى.

أصارحك، لأظل أنا، كما عهدت نفسى. أصارحك لأننى لا أريد أن أكون أقل شفافية من «الماء» الذى جمعنا.

لست أنا، التى تخذل «الماء».

أصارحك، لأبقى أنا و«الماء» أصدقاء.

سوف أكون مهيأة لأى رد فعل منك. لا تخف، كن على سجيتك. عندى مناعة أحسد عليها ضد مجىء الرياح، بما لا تشتهى سفينتى الهائمة.

تمر الأيام، وإذا بى أراك من بعيد، فى المكان نفسه الذى جمعنا أول مرة، بين الأشجار، وبـ قرب «الماء».

لا أحد معك، إلا حضورك الساطع .عيناك شاردتان، تتأملان شدو الغروب على صفحة «الماء».

استجمعت شجاعتى، وجلست بجانبك.

ما أحلى الجلوس معك، والشتاء يدق أبواب القلب الوحيد.

كم أشتاق إلى عنفوان الأمواج معك. سبحنا معا تحت «الماء»، وفوق «الماء» لكننا مازلنا على مسافة من الخطر. لا أؤمن بسباحة آمنة تساير التيار.

قلت لك: «عندى اعتراف»

قلت لى: «لا تترددى أرجوك»

لا أدرى كم من الوقت مضى، وأنا فى محراب أصعب وأجمل اعتراف. اعتصرت كل أشواقى، ومشاعرى، وقدمتها إليك. ارتاح ضميرى. حتى لو لم تكن معى على الموجة نفسها، لن أحزن. المهم أننى الآن على وفاق مع نفسى.

انتهت مهمتى ، وجاء دورك أنت. ارتسمت على ملامحك مشاعر متناقضة. أخذتنى إلى عينيك وطابت لى الإقامة هناك.

سألتك: «لم كل هذا التفكير؟

قلت : «مشاعرك أثارت دهشتى لا أعرف ماذا أقول لك. أنا أيضا أعشق «الماء»

لم يخطر على بالى، حين التقينا عبر «الماء»، أننى سأسمع منك هذا الكلام»

قلت: «كلمة واحدة أنتظرها منك».

دون كلام، نهضت من مكانك، أخذت يدى بين يديك، وسرنا معا، لا أعرف إلى أين.

توقفت أمام «الماء»، وقلت : «ليس عندى كلمات، لا أملك إلا هذا الرد على مشاعــرك. تعالى إلى «الماء» مرة أخرى، كـ أول لقاء». هنيئا لـ مــن كان «الماء» ثالثهما.. من جمعهما «الماء»، لا بشر يفرقهما ولا قدر.

شيء أكبر من الغيرة

كنا على موعد.

هناك على أرض، نحـــن الإثنـــان فيها غربـــاء، تلاقى شيء ما، على الحدود المشتركة بين وسامتك، ويأسى.

قصة ما، فى عينيك، ترمى بـ خيوطها حولى، فإذا بى، منذ أول لقاء، متورطة معك.

أول لقاء؟ ليست الليلة أول لقاء بيننا.

منذ وعـيت، وأنا ألقـاك. ألتـقى بك، فى كل لحظة يدخل صـدرى الهـواء. أناديك حين تحـاصرنى تفـاهة، وخشـونة، من يظنون أنفسهم «الرجال».

ألقـاك، حين أنظر فى مـرآة العـمـر، وأتحـسس سنوات، سـرقت نضارتى.

ألتقى بك، حين أحتاج البكاء، ويكون عصى المنال. كلما اشتقت إلى

الحياة، ولا ألقاها، ألقاك. على موعد أنا معك، حين أتوق إلى رقصة هادئة، أطوف معها كل الأجواء.

كلما داعبنى الحنين إلى ليلة حب، تصل الليل بالنهار، وتمتد حتى الرمق الأخير، ألقاك.

حين تغازلنى رمادية المواسم، أهرب إليك بين ألوان الطيف.

حاولت منذ الليلة الأولى، أن أعثر على شىء، يكذب إحساسى. أدقق النظر، أرهف السمع، علنى أمسك بـ دليل يثبت أنك الرجل الخطأ.

لم أجد شيئا، إلا وأكد مشاعرى. كل شىء فيك، ومنك، له صدى داخلى. عزفت على أوتارى، فهل أقاوم الشدو معك؟

هل أقاومك أنت؟

أنت لست رجلا كنت أفتش عنه. أنت حلمى، نزل من سماء الخيال، رأيته قبل أن أموت، يمشى على الأرض.

أنت أمنيتى، أغزلها على ملامحى، تميزنى عن كل النساء. حين أتشبث بك، أتشبث بـ نفسى. اقترب منك، فـ أصالح طفولتى، وأغنياتى ومأساتى على جدران الكون أنقشها. أراك، فـ أرانى بعد غياب.

التقينا.

أنت تبحث عن وطن ، وأنا أهرب من وطن.

أنت منشغل بـ تغيير العالم. وأنا منشغلة بـ تغيير مسام جلدى. وفصيلة دمى. أنا أهفو إلى التحليق، وأنت تهفو إلى انتماء.

أنت حلو الحديث، وأنا رائعة الصمت.

أنا أنتظر رجلا، أتذكر معه أننى امرأة. وأنت تلهث بعيداً عن أى امرأة، تذكرك بـ رجولتك.

أيامك المتجددة، تمنحك بدايات العمر. ورتابة أيامى، ترمى بـ ثقلها على عمرى.

لأيام كنا نتقابل بين الناس. نتكلم، نتناقش، نروح.. نجىء، الغداء معا، والعشاء معا.

تشرح لى معالم المدينة الغريبة، وأنا أحاول كشف معالمك أنت. تحكى عن نساء، ورجال كثيرين، وأنا أتوق لأن تحكى عنك أنت. نقلت إلى روحى أحزان البشر، وأنا فى حاجة إلى أحزانك أنت.

أدهشنى تواضعك. فأنت تستضيف فى عينيك، غربة الآخرين. وتنكر على أى أحد، استضافة غربتك أنت.

لأيام كنا معا، أول تحية للصباح، تأتينى كانت منك. وأنت آخر وجه يرسلنى إلى المنام.

يستهوينى الرجل الثائر، السابح ضد كل التيارات. نقطة ضعفى فى الحب، رجل مثلك لا وقت لديه للحب.

كلما جمعنا لقاء، يبدو كل شىء طبيعيا، إلا أننى، حين أنظر إليك، أحب الحياة وأكرهها، لا أعرف كيف.

هناك مثل يقول «اسكب ماءك الملوث قبل الحصول على الماء النقى» أهى مصادفة، أننى حين قابلتك، كنت قد سكبت كل الرجال من حياتى؟ حتى ذكرياتى، كلها من ذاكرتى سكبتها.

ما أجمل التوقيت الذى جئتنى فيه. خالية من كل رجل، وخالية من كل ذكرى، وممتلئة بالحنين إليك. تمتد يدك لـ تصافحنى، تأتينى الدنيا رشفة واحدة مركزة من الفرح.

لم أصدق أننى عثرت عليك. أصابنى وجودك القريب، البعيد، بارتباك أخفيه عن الجميع، وعنك أنت. هل لاحظت أننى لم أكن طبيعية، أو تلقائية؟ أنا التى تأتيها الكلمات طوع أمرها، أمامك تتعذر كلماتى؟ أنا التى تزهو بـ أنها المرأة المبادرة، حين ألمحك قادما، تتعثر خطواتى؟

فى حضورك، يغيب الزمان والمكان، ولا يبقى إلا حكمة لقائنا الغامضة.

وأنت معى، أحس أننى طفلة، عليها أن تتعلم الأشياء من جديد، ولابد لها أن تخلع عمرها الملتصق بـ جلدها، وتطالب بـ حقها فى عمر جديد.

فضحتنى مشاعرى رغما عنى، فأنا لا أتقن فن الإخفاء. هل أخفيك أنت؟ أنت الرجل الوحيد الذى يستحق الإعلان. إذا لم أجاهر بك، وأنثر حبك على حزن القمر، والزهور، وأغصان الشجر، فأنا لست جديرة بك.

أجرأة، حين كنت أتأمل عينيك، ويديك، وابتساماتك وشعرك الكثيف؟ أبدو، كأنما أرى رجلا لأول مرة. نعم، أنت أول رجل حقيقى أراه. كل الرجال الذين رأيتهم، كانوا أنصاف رجال، أو أقزاما يتنكرون فى ملابس الرجال.

كنت أنتظر رجولتك أنت، تجعلني في قمة الوعي، وتسلبني إياه دون فاصل زمني.

أنت رجل المعادلات الصعبة، عشت معه في صمت .

أنت نصيبي العادل من المحال، وأنت فارسي الذي حملني إلى بيتي في السماء.

أكثر ما يحزنني، أنك التقيت بالإنسانة، والمرأة، بـ داخلي، ولم تلتق بالكاتبة. سيظل تعارفنا ناقصا، إلى أن تقرأني. سأبقى مؤرقة، حتى تلتقي عيناك بـ سطوري.

إذا لم تتحرك مشاعرك تجاهي، طوال أيام الرحلة، فالكتابة، هي ورقتي الأخيرة، التي أراهن عليها. فقط، في الكلمات التي تعتصرها روحي، فوق الصفحات، ستجد ما يميزني عن كل النساء، اللائي ينبهرن بك.

منحتني الكتابة، اسمي، وعنواني، وغايتي، من أجلها أواصل الحياة. سأكون لها أكثر امتنانا، لو منحتني حبك، وإعجابك. ما أروع كلماتي، لو أصبحت رسولا بين قلبينا. أتعرف أنك أثرت غيرتي؟

كان اليوم قبل الأخير للرحلة، نجلس على أحد المقاهي.

كنت الرجل الوحيد بين مجموعة كبيرة من النساء. كلهن ينظرن إليك بإعجاب. حين تتكلم، ينصتن لكل كلمة منك. تجرأت واحدة منهن، وقالت بصوت مسموع:

«يا لك من رجل وسيم» لم تكن هذه التي أثارت غيرتي.

إنها امرأة أخرى ذات عيون خضراء، بادرت أنت، وسألتها: «أحقا تدرسين الفلسفة في الجامعة؟ هذا شيء جميل».

كم آلمتنى ذلك المساء وبكيت حتى مطلع النهار..

قابلتك فى الصباح بـ عينين متورمتين من البكاء، يعذبنى متسائلا: ماهو الشىء الجميل، فى أن تقوم امرأة بـ تدريس الفلسفة فى الجامعة؟

أهو اهتمام بالفلسفة، أم اهتمام بتلك المرأة على وجه التحديد؟

إن كنت مهتما بالفلسفة، لا بأس، فأنا أعشق التفلسف، وفيلسوفة بالفطرة. أما إذا كنت مهتما، بـ تلك المرأة ذات العيون الخضراء، فلاعزاء لى أنا عسلية العينين. يمكننى بالطبع تغيير لون عيونى، بـ عدسات لاصقة. لكننى أصر على اللون العسلى، خاصة أنه لون عينيك.

لا أؤمن بـ مشاعر الغيرة، ولست أقارن نفسى بأية امرأة. ورغم ذلك، استسلمت للبكاء، والحيرة.

أدرك فى أعماقى، أن الأمر، لم يكن الغيرة الساذجة التى تحسها النساء.

إنه شىء أكبر من الغيرة. شىء لا أعرف له اسما. كل ما أعرفه، أنه يشبهك فى حلاوتك، ومرارتك. شىء له غرابة حياتك، وشموخ روحك.

ربما كان شعورى، أن كل الكلام لا يجدى، وكل الأفعال لن تفيد. مهما قلت، ومهما فعلت من أجلك، ستظل الرجل الذى لا يطال، والحب الذى عند مولده، لابد أن أواريه التراب.

أنت وموسم موتى البطيء

دقت

الساعة معلنة انتصاف الليل، وبدء فصل جديد من الزمان، يسمونه موسم «الصيف».

كم أكره «الصيف»، وأخشاه.

ينتابنى فى «الصيف» قلق روحى يفسد تصالحى مع أيامى. تهاجمنى أوجاع فى الجسد، تغتال حركة دمى. يحتل رأسى صداع شرس، لا مرجع له فى نظريات الطب، أو عند أكثر الأطباء فطنة، وحنكة.

أكره «الصيف»، وكل ما يأتى به. أكره الزحام، والصخب، وتهافت الناس على نسمة هواء . أكره أفراحه المفتعلة، وسهراته المغتصبة سكون الليل القصير.

ويغضبنى اعتداء البشر على خلوة «البحر».

أكره عرق «الصيف»، وعواطفه المتصببة مللا، وسخونته المخادعة، خالية الدفء. وأكره الود المؤقت العابر على سحابات نهاره الطويل.

تنفرني مشاعره، «مالحة، البدايات، «رطبة، الملامح، «لزجة، المصير. تؤلمني أشجاره الباهتة، تئن دون صوت. وأكره أن يسرق «الصيف» ساعة من عمري باسم تبدل المواسم.

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل، وبدء فصل جديد من الزمان، ينتزع وقار ملابسي دون حياء. مرة أخرى أشهد، الرعب المسمى بـ «الصيف». لم تعد بي قوة، لأهزم ما يحمله، من كآبة تلتصق بـ جلدي. إنه موسم موتي البطيء.

لو فقط كان بإمكاني، أن أمحوه من الوجود. «شتوية، المزاج أنا، «خريفية، التكوين، «ربيعية، الإحساس، فما حاجتي لذلك الكابوس الحارق، يمرض روحي، وجسدي، اسمه «الصيف» ؟

ألف وأدور في البيت. أريد الهروب، أود الاختباء، وكأنني متهمة في جريمة، تستعد لملاقاة الجلاد.

لابد أن أفعل شيئا، إني خائفة. كل عام، يزيد «الصيف» من جرعة تعذيبي. كل عام، يسحق جزءاً أكبرمن طموحي، وعزة نفسي.

إني خائفة. ترى ماذا ينتظرني هذا العام؟ لابد أن أفعل شيئا، لابد أن أقاوم.

لجأت إلى أغنيات أحبها، صمت عنها النغم. احتميت بـ أوراقي تراجعت في خجل. أعددت كأسا مثلجا من مشروبي المفضل، تلاشت برودته قبل أن ألمسه. بحثت عن قصائد كانت تغريني، هرب منها الشعر.

جريت إلى النافذة، صفعني هواؤها الخانق. لا أستطيع الخروج. الناس مكدسون في الفراغ، بأصواتهم الخشنة، وأطفالهم المزعجين. يبدون بعيونهم المقتحمة كأنهم كانوا في الأسر، وأطلق سراحهم ليلة بدء «الصيف».

لم تمنحنى الحياة مؤهلات الاندماج فى هذا الهوس الجماعى، يسمونه أمسيات «الصيف».

أحس بـ دوار، وغثيان، ورغبة فى اعتزال العيش. ما أنت أيها «الصيف»؟ أتكون نصيبى العادل من الألم شريعة الحياة؟ أتكون عقابا من «السماء» لأننى ناقمة على «الأرض»؟

انتقام أنت لإثم ما، اقترفته فى زمان ما، ومكان ما، ولا تعيه ذاكرتى؟

ما أنت أيها «الصيف»؟

هل موتى البطىء فيك، هو ثمن الحياة المكثفة، تجتاحنى فى الشتاء؟

ويرن الهاتف.

من يا ترى يكلمنى فى هذا التوقيت؟ مَنْ يود سماع صوتى فى ليلة تخرس كيانى؟

على الطرف الآخر، يأتينى صوت ليس غريبا على أذنى:

«هل أيقظتك؟» أسأله غير مصدقة: «أنت؟ والليلة؟ وبعد كل هذا الفراق».

يقول: «لم يكن فراقا وإنما هدنة».

سألته: «أهى حرب بيننا؟»

يرد متحمسا : «الحب نوع من الحرب. أوحشتينى».

أسأله: «لماذا الليلة؟»

يقول: كان لابد أن يكون الليلة».

هامسة أردد: «لماذا الليلة؟».

يفاجئني قائلا: «الليلة بدء موسم الصيف .. وأعرف جيداً إحساسك. لابد أن أكون بجانبك الليلة.. منذ فترة وأنا أرتب لمكالمتك، ولقائك، تعمدت التأجيل، لأواجه معك ليلة بدء الصيف. أريد أن أراك الليلة» أسكتتنى المفاجأة.

يسأل: «أين ذهبت؟»

أقول: «أمازلت تذكر؟»

يرد: «كيف أنسى موسم موتك البطيء؟»

تسأله دهشتي: هل تستطيع .. يقاطعني: «دعيني مرة واحدة أمنحك شيئا. دعيني أثبت أن حبي لك قادر على مشاركتك أصعب لحظاتك. لماذا تصرين على مواجهة مشاكلك وحدك؟ صدقيني، إذا قاومناه معا الليلة، فلن يهزمك أبداً بعدها. المهم أن تبدئي، المهم أن تكسري دائرة الخوف، ولو بـ مساعدتي. لماذا التردد؟ لن تخسري شيئاً على أية حال».

قلت: «أنا الليلة لا أصلح لأي شيء».

يقول: «أمنيتي أن ألقاك حين لا تصلحين لأي شيء» لم يعطني فرصة لـ مواصلة الحديث،ختم مسرعا: «انتظريني أنا قادم في الطريق إليك».

تموج بـ داخلي مشاعر متناقضة، متداخلة. مع هذا الرجل، أحس بـ فرحة تغير كيميائي، ولون جلدي، وشكل ملامحي، تتدفق من قلبي عاشقة لا يحركها سواه. «هو» في حياتي، الوجع الممتع، والتوهج لا غياب، أو فراق يطفئه.

نظرة واحـدة، ويرسلنى إلى مـوطن النار، تكفى لمسـة لـ يفـتـتنى، ويبعثرنى فى الفضاء.. وحين كا ن يأتينى بالزهور، وابتسامته سخية الدفء، أصبح أنا والموت - بعد طول خصام - أصدقاء.

كل شيء فيه، وعنه، ومنه، له فعل السحر. فلم أنا مترددة؟

لم لا أعطيه فرصة؟ ربما تنتصر أشواقنا المؤجلة على موسم موتى البطيء.

ارتديت ثوباً كان يعجبه، وأدرت أنغاماً رقصناها آخر لقاء منذ سنوات.

أغلقت كل النوافذ، لأمنع تطفل أى شيء من «الصيف».

هاهو ذا يطرق الباب مرحباً . يدخل كأننى أنا الضيفة. يحمل فى يديه زهوراً أحبها، ومن عينيه يطل عبير الحنين.

«هو» بعد غياب، «أنغام» رقصتنا الأخيرة..

«زهور» أحبها....وليلة بدء «الصيف».. هذا فوق احتمالى .

رجل وامرأة

من

هذه المرأة الراقدة بـ جـانبى، الملتحفة بـ الشخير والدهون، واللون الأحمر، تقاسمنى بيتى وحجرتى وفراشى؟

مَنْ هذه المرأة، تمد يدها بعد انتصاف الليل، تطفئ سيجارتى، وتشعل رجلا آخر غيرى، رغما عنى يسكننى؟

مَنْ تكون قصيرة الشعر، طويلة الأظافر، تغطى ملامحها بـ المساحيق الملونة، تخفى رائحة العرق بـ عطر نفاذ يخنقنى، ولا أستطيع الصراخ؟ تطالبنى رغبتها الخشنة، بـ التزحلق على جسدها الأملس؟

عشرة سنوات، وأنا أتساءل. وكلما تكرر السؤال، كلما بدت الاجابة أكثر صعوبة، وأشد احراجاً.

عشرة سنوات مع امرأة متعثرة الهوية، تسحبنى من نفسى، وليس لى حق الاعتراض، أو الشكوى. أمثل دور الرجل المتلهف، المطيع لـ حكمة غامضة، الراضى بما قسمه الله له من امرأة لا تخطئ الهدف.

سنوات، تأخذ انهزامى المرتعش، وتعطينى غيبوبة ليل، لا تغضب، ولا تفيق.

تتركنى روحاً ذابلة، وقد امتصت من أزهارى العبير وحلو الرحيق.

أنهكت رجولتى، التى قاربت من الخامسة والأربعين، دون علمى.

تتحرك المرأة الملتحفة بـ الشخير، والدهون، واللون الأحمر. على أنفاسها الصاعدة، والهابطة تلهث أيام شبابى. تتقلب على جنبيها، كأن شيئا لم يحدث منذ لحظات. كأنها لم تقترف ذنبا، تكرره عشرة سنوات.

تدهشنى هذه المرأة. كيف تستطيع النوم، وهى تفعل ما تفعله بى؟ لم أرها ليلة مؤرقة، أومشغولة البال. ولكن لم تؤرق، أوينشغل لها بال؟ ألاتنال ما تهواه؟ ألا أمنحها فى المساء، شهادة أنوثة، مختومة بـ دمى؟ الشخير، والدهون، واللون الأحمر، هذا الثالوث المتنكر على هيئة امرأة، أين منه المفر؟

حجب عنى شخيرها، سكون الليل، وشدو النجوم.. اغتال تأملاتى، وأجهض فى المهد، إيحاءات الحكمة، وسحر الأشعار.

وهذه الدهون المتراكمة، التى صنعت طبقة عازلة بينى وبين رشاقة الإحساس، كم تنفرنى، وتخيفنى.

واللون الأحمر، الذى أصبح جزءاً من معالم غرفة النوم، تتوهم أنه اغراء لايقاوم. وهو، يوترنى، يقلقنى.

مَنْ هذه المرأة، التى تستحوذ على هواء حجرتى؟. تقول أوراق الشرع، أنها «زوجتى»، .. وتقول أوراق القلب، أنها «قاتلتى».

لأول مرة أسمح لنفسى بالإعتراف، لأول مرة، تأتينى شجاعة الإدراك.

أتأملها وأهمس لها: «نعم، أنت قاتلتى، أيتها النائمة فى غرور. أود أن ألقى بالكلمة فى وجهك، وليحدث ما يحدث. كفاك عشرة سنوات، أم تراك ترغبين فى المزيد.. اطمئنى لم يعد عندى ما أمنحه».

لست أهرب من ذنبى، ولا أحاول التنصل من مسئوليتى.

بـ اختيارى منذ عشرة سنوات، وقّعت على ورقة ادانـتى، وخيانتى لـ نفسى. وأنا فى كامل قواى العقلية، أخذت قرار أن أعاشرها تحت سقف واحد. أنا رجل حر، لن أخسر شيئا، لا شىء يمكنه أن يخضعنى، ولا توجد امرأة فى العالم، تستطيع أن تأخذ ما لست مهيأً لاعطائه. هكذا رددت لنفسى، فى ليلة الزفاف.

كأس الذكريات ممتلئة حتى آخرها، تؤلمنى مرارة المذاق، لكننى أصر على أن أشربها، حتى الثمالة، أو لعلها الإفاقة.

مضت عشرة سنوات. كنت فى الخامسة والثلاثين من العمر، شابا وسيماً ، رشيق القوام، والأحلام، رومانسى الكلام والحركات، دافئ الفكر والصمت، رقيق الاحساس.

أعمل مشرفاً على قسم الثقافة والفنون فى مجلة أسبوعية، ذات تاريخ عريق فى الصحافة، والفن.

كنت فى مجالى، الأوحد، والأكثر شهرة، صاحب القلم المتميز،

المنحاز دائما للجديد، المدافع عن العدل، والحرية. أواجه الهجوم بـ صدر رحب. كلما ازداد الهجوم، تأكدت أننى على صواب أكثر. إذا تلقيت المديح، أشك فى نفسى، وأراجع ما كتبت.

شاعراً كنت، تمتزج مقالاتى الصحفية بـ سحر الشعر، يمنحنى تفرد الأسلوب، والرؤية.

بـ داخلى رجل، مرهف الوجدان، متعطش للحب، يؤمن أن العاطفة، أهم، وأثمن ما فى الحياة. تنام بين ضلوعى، مشاعر أبخل بها على النساء.

ادخرت قلبى وجسدى لامرأة، لا تجيء إلا فى الأحلام. امرأة، تسكن قصائدى، تحتل يقظتى وغفوتى... معها أشرب قهوة الصباح، وشاى السادسة.. إلى البحر، تسافر معى، تعشق مثلى السباحة، والغناء. تشبهنى إلى حد القلق، والعناد. الموت لديها أهون من أنصاف الحلول. امرأة، حرة كالهواء، صعبة مثل تسلق أعتى الجبال، سلسة كالنهر المطمئن إلى منتهاه.

عذبتنى تلك المرأة. بـ سببها تعثرت مع النساء.

أبحث عنها، فى كل امرأة، طرقت بابى. عرفت الكثير من النساء. لم يكن السبب، كما قد يبدو، أننى أميل إلى التعدد. على العكس، فـ لأننى لا أريد إلا امرأة واحدة، استلزم الأمر أن أجرب الكثير من النساء. مع كل امرأة، كنت أجد شيئا، أوجزءاً، من امرأة خيالى. لم ترضنى الأجزاء المبعثرة هنا، وهناك فـ قررت الإكتفاء بـ الخيال المكتمل. ونجحت فى ابقاء علاقاتى مع النساء، فى حدود الصداقة. امتلأت حياتى بـ الصديقات من كل لون. منهن الشاعرات، والفنانات، ونساء الأعمال، والكاتبات. لكن قلبى، كان قد تعلم من الماضى، وأكسبته خيبات الأمل المتكررة، مناعة عاطفية لا تلين.

يـــزداد شخير المرأة الراقـــدة بـ جـــانبى، خشونـــة، وعمقـاً، فـ تزداد الذكريات مرارة، وألماً.

منذ وقــت مبكر، حسمت قضية الزواج. بداخلى قناعة، أن الشعر، أو الفن، لايرضى له شريكاً. كما أننى بطبيعتى، وتـــركيبتى النفسية، لا أصلح لأن أكـون زوجاً فـأنا سـريـع الملل، مـتناقض الأهواء، مـتقلب المزاج، تأتينى العاطفة ومضات متأججة خاطفة، ثم سريعا ما تخفت وتخبو.

وقـبل أى شىء، أنا عـاشق لـ حـريتى. لا أتحـمل أن تحـاسـبنى «زوجـة». لا أطيق أن تتـدخل امرأة فى مجـريات حيـاتى. ولا أتصـور «الرباط المقدس» إلا بينى، وبين فنى، أو بينى وبين حريتى.

بلغت الخامسة والثلاثين من العمر، تزوج كل أصدقائى. وبقيت أنا مخلصاً لـ فطرتى، وفنى، سعيداً بـ حريتى.

حين يفـاتحنى صـديق فى مـسألة زواجـى، يكون ردى، «ليس من المفروض، أن يتزوج كل البشر».

بالتدريج، أخـذ أصدقائى المتزوجون، واحداً بعد الآخـر، يبتعدون عنى، ويتفادون مـلاقاتى. تصـورت فى البداية، أن السبب هو مشاغل الزواج. لكننى بعد فتـرة قليلة، اكـتشفت أن الرجل غير المتزوج، فى عرف مـجتمع الأزواج «خطر»، على الفضيلة، و «تهـديد» للأخـلاق. ويزداد الخطر، والتهديد، إذا كـان شاعراً معروفاً، يجاهر عـلى الـورق، بـ آرائه المتـحررة. وليس يشفع أنه صـديق عـشرة طويلة، وعلى خلق قويم.

ولا يعلم أحد، أن الخلق القويم، كان مشكلتى. فكم من النساء خسرت صداقتهن، وكم من العواطف، انتهت قبل أن تبدأ ، والسبب هو أخلاقى. نعم، أنا مرهف الوجدان، متعطش للحب، لكننى أرفض أن أحبٍ فى الظلام. أريد امرأة تحبنى فى النور، ترمينى على أغصان الشجر، وصفحة الماء، كما أرميها على صفحة الشعر، وزرقة السماء.

يجذبنى فى المرأة، شجاعتها فى الإختلاف. نقطة ضعفى امرأة، تجاهر بـ العشق، تبوح بـ إسم حبيبها، ولون عينيه، وهمسات أشواقه، كما تبوح العصافير بـ الزقزقة وحب التحليق.

لم أجد إلا امرأة خيالى، قادرة على البوح المنبوذ.

كنت بـ الفطرة رجلا نبيلاً، لا يعجبه الحال المائل كما يقولون. كانت لى حياة واحدة سافرة الملامح، أعيش ما أكتب، وأكتب ما أعيشه.

كانت لى أخلاق الفرسان، فى زمن لم يعد يمتطيه إلا الأقزام.

واحد من أصدقائى المتزوجين، لا يتورع عن مطاردة إحدى زميلاتى المتزوجات، فى الوقت الذى يعتبرنى أنا المكتفى بـ وحدتى وأشعارى، خطراً على الفضيلة.

لم يهزنى ابتعاد الأصدقاء، أو نظرة الناس المرتابة. كنت مصراً على اختلافى، وغير مستعد للتخلى عن عقلى لإرضاء الآخرين.

أسعد أوقاتى، حين أعود مساء إلى بيتى الخالى، بعد العمل وممارسة الرياضة، أعد وجبة طعام ساخنة، أنعم بالهدوء، أشرد مع الموسيقى، أو مع خاطر لـ مقال، أو الهام قصيدة، أو فيلم من أفلام «هيتشكوك».

ولعى بـ الأفلام البوليسية يثير دهشة أصدقائى. لايتصورون كيف تتفق وشخصيتى الرومانسية.

وأنا لا أرى تناقضاً. فالإنسان يحب مشاهدة ما ينقصه. الفيلم البوليسى المتقن، رفيع المستوى، محبك الرواية، يثير ملكاتى الفكرية، ويتحدى قدرتى على التركيز ودقة الملاحظة، وربط الأشياء، لكشف اللغز فى النهاية. ولكن ماذا يمكن أن يمنحنى إياه، فيلم غارق فى الرومانسية؟

دربت نفسى على نمط حياتى ، الذى يستبعد التصاقى بـ آخر، أيا كان.

أنا أكثر الأصدقاء حميمية لـ نفسى. أنا أكثر الرجال الذى يؤنسنى وجوده، ويستحق ثقتى وصحبتى.

يتصور الناس، أننى مصر على حريتى، والعيش بـ مفردى ، لأعربد وأسكر بين أحضان النساء.

لماذا يصنع الناس الترادف بين الرغبة فى الحرية، والرغبة فى الإستهتار، والإنحلال؟

لم أستطع أبداً أن أفهم، العلاقة بين «التحرر» و «أحضان النساء»، أو بين «التحرر»، ومشروب يفقد العقل والإتزان؟

إنه قلة خبرة من الناس فمَنْ جرب الإرتماء فى أحضان الشعر، لاترضيه ولا تجذبه أحضان النساء. ومنْ يرتشف ايحاءات البحر، والأشجار، والأنغام، والزهور،لا يحتاج أن يسكره مشروب.

لا أدرى، هل أنا مختل العقل؟ أحس أننى رجل غير طبيعى، عفيف النفس والجسد، والرجال يتهافتون كالذباب على النساء.

لم يتعود الناس على هذا النمط من الحياة. لا يفهمون كيف لـ رجل أن يختار العيش بـ مفرده. كيف لا يحتاج لامرأة تخدمه، وترعاه، وتمنحه اشباع العاطفة والجسد.

لم يكن احتياجى للمرأة مرتبطاً بـ هذه الأشياء السطحيــة، الدنــيا. لا أريد أن تخدمنى امرأة، وترعانى وتمنحنى اشباع العاطـفة والجسد. لا يهمنى الإشباع. على العكس، أنه ينفرنى، ويقتل حماسى، ويخمد عنفوان مشاعرى. والأهم، أننى أحتاج المــرأة، التى تلهــمنى الشعــر، لا المرأة التى تطبخ لى وجبة طعام.

يقولون «الرجل طفل كبير، محتاج دائما للرعاية والتدليل، والخدمة».

لا أفهم هــذا الكلام الذى يحول الرجل، إلــى كائــن قاصر، مدلل، أو معاق، عاجز، عن خدمة نفسه.

أنا على العكس، كنت أجد متـعة كبيـرة فى قيامى بالتنظيف، والطبيخ، وشراء كل ما يحتاجه البيت.

يحدث أحياناً، أن أكون مكتئباً، أو مهموما. وما أن أبدأ فى تقــشير الخضار، أو كى الملابس، حتى تتحسن حالـتى وأعــود إلى طبيعـتى. لا أستطيع العيش فى بيت، لا أرتبه وفق مزاجى، ولا أعرف أسراره الصغيرة.

جعلنى القيام بـ أعمال المنزل، أكثر فهما للقهر الواقع على النساء. كتبت عن هذا القهر، واندهشت للهجوم الواقع على شخصى، وكتاباتى. استـغل البعض موقفى، وقال أننى أسعى لـ كسب قلوب القارئات، وتوسيع دائرة المعجبات.

قد يفهم المجتمع امرأة تدافع عن النساء. لكنه لايفهم ذلك للرجل. هذا ما تعلمته، بعد الحملة التى خضتها وطالبت فيها الرجال، بأن يجربوا أعمال الكنس والطبيخ، قبل التحدث بإسم النساء.

رغم تجدد الهجوم، وسوء الفهم كنت راضيا عن حياتى.

حرصت على البقاء مختلفا، لا لمجرد أنها تركيبتى وطبيعتى. كنت مقتنعاً بأن حياتى المختلفة، هى التى تجعل قلمى مختلفا. أخاف التشابه مع الآخرين، حتى لا أفقد تفرد كتاباتى، ووهج قصائدى.

تعاود المرأة الراقدة بـ جانبى، الحركة. أحس حركتها اهتزازة قوية، تصيبنى بالدوار. تتحرك بـ حرية كاملة، تبسط ذراعيها، كأننى غير موجود.

منذ عشرة سنوات، كنت أنعم بأن لا أحد يشاركنى، المساحة الخاصة بـ النوم، والحلم. لا زوجة، تضطرنى للابتسام، أومنح الحب أو كلمة حنان.

يالها من متعة، حينما كنت أصحو، لا امرأة فى وجهى، تدفعنى لإلقاء تحية الصباح، أو تسألنى ماذا أنا فاعل اليوم، أو لماذا أبدو مبتهجا، أومهموما.

الرجال المتزوجون، يرثون لـ حالى، بينما كنت أنا الذى يرثى لـ حالهم.

فما أسخف أن يستيقظ الرجل كل صباح، على الملامح نفسها، والصوت نفسه. كيف يمكن للرجل، أن يحتفظ بـ حيويته، ومشاعره المتأججة، وتألقه العقلى، وهو يعود كل ليلة إلى المرأة نفسها؟

هل يمكن للرجل السوى، أن يحتمل هذه الرتـابة دون أن يمرض، أو يكتئب، أويذهب عقله، أودون أن يصبح عدوانيا، أو متوتراً؟

كل صباح، أحمد الله عـلى نعـمة الحـرية، والشعـر، أدعـوه، ألا يحرمنى منها ما حييت. ويحلو لى، تأمل حال أصدقائى المتزوجين. كلهم دون استثناء، كانوا قبل الزواج، يتمتعون بـ قوام رشيق. كلهم دون استثناء، بعد الزواج، أصبحت لهم «كروشا» قبيحة المنظر.

شـغلنى هذا التـحول. وأخـذت أبحث عن العلاقـة الممكنة بين عـدم الزواج والرشاقة.

واكتشفت أن ترهل الجسم بعد الزواج، ليس إلا امتداداً لـ ترهل العقل والعاطفة.

لفت انتبـاهى أيضـا، أن أصـدقـائى المتـزوجـون كـانوا قـبل الزواج، يتمتعون بـ فكر مستنير، مرن. بعد الزواج أصابهم التزمت والإنغلاق.

أقرب أصدقائى، تزوج امرأة أحبها سبعة سنوات. انقلب من التفتح إلى ضيق الأفق.. وأصبح متعصباً فى آرائه وأحكامه.

حينما جلست معه آخر لقاء، شعرت أنه مصدوم فى زواجه، يفتقد المرح.

أشفقت عليه، وبدا لى تعصبه، تعويضا منطقيا عن فقدان البهجة.

تفتح المرأة الملتحفة بـ الشخير، والدهون واللون الأحمر، عينيها، تقـول فى صـوت مـتـآكل النبـرات، مـتـثـائب الود.. «اطفئ النور إنه يزعجنى ويقلق منامى».

أترك لها الحجرة، ألتقط علبة سجائرى، وأذهب إلى الشرفة.

أوحشني سكون الليل، وأحن إلى العزلة والشعر. أتأمل رماد السجائر، وأتذكر ما أحرقته من عمرى.

كيف تحولت على يد تلك المرأة من رجل حر إلى كائن مستسلم؟

من رجل ينتظر الهام القصيدة، إلى رجل ينتظر وجبة عشاء؟ كيف تبدلت من شاعر غاضب، إلى موظف مستأنس؟

من قلم يثير الهجوم، إلى قلم يتلقى المديح؟

كيف احتملت امرأة عشرة سنوات فى بيت واحد، وحجرة واحدة، ولم أكن أطيق خيالا معى؟

لم يرغمنى أحد على الزواج، وأدرك أنه شر يمكن تجنبه. ما الذى حدث لى، ولـ حياتى؟

الأمور كلها، كما خططت لها. كل شىء على ما يُرام، لماذا اذن أقدمت على الزواج؟ أود اقتناص اللحظة النفسية التى ملكتنى، وأنا أسعى إلى شر يمكن تجنبه.

أتسلق ذاكرتى الوعرة.

لا شىء.. لاشىء على الإطلاق، إلا أننى كنت أعانى الملل. وماذا يعنى الملل؟ أدرك أنه النسيج الذى صنعت منه الحياة. هل حضارات الإنسان المتعاقبة شىء آخر، غير محاولات لـ قتل الملل؟

كنت أدرب نفسى على مواجهة الملل، وأقيس ابداعـــى، وتميزى بـ قدرتى على احتمال الملل، وتحويله إلى شىء ايجابى، يمكننى السيطرة عليه. أحيانا يصل بى الملل، إلى سأم متوحش، يفترسنى، ويطيح بـ كل ما حوله. أقضى ليلتى فى معركة شرسة بينى وبين السأم، تنتهى غالبا بالتسليم من جانبى، ومنحه حق الإقامة لبعض الوقت.

أتراني، تزوجت تلك المرأة، بعد إحدى هذه المعارك التي أخرج منها منهوك القوى، مشوش الرؤية، فاقد الشهية؟

هل زواجي من شطحات غروري؟ أردت أن أثبت أنني أستطيع تغيير الزواج؟

قد أكون تعبت من حصار الناس، والتقاليد؟ ربما أرهقني اختلافي؟

ربما أحببتها؟

أحتمل أي مبرر، إلا أن يكون الحب.

هل أحببتها؟ إنه سبب أدعى حتى لا أتزوجها. أؤمن بالحب، وهذا ما يجعلني أنأى به بعيداً عن رتابة الزواج. الحب عندي رؤى فلسفية للوجود، تستبعد التصاقي بالمرأة ليل نهار. العاطفة وهج جامح، يعزف على أوتار الدهشة والترقب. اشتياقي للمرأة، خاطر، أو الهام يكشف أعماق النفس، ويدلني على أسرار الكون، وخفايا الشعر.

ما الذي حدث لي، لـ تتحول المرأة من نار تلهب خيالي، إلى قطعة لحم خاملة؟

ماذا أصابني، لتُختصر متع الحياة إلى غيبوبة ليل، وملء معدتي بـ الطعام، والتفرج الكسول على شرائط فيديو فاترة الحياء؟

متى أعود إلى حقيقتي؟ متى أعود إلى نفسي؟

لست أدري، لماذا الليلة يصل احتمالي إلى منتهاه؟ طوال العشرة سنوات، لم تفارقني التساؤلات، ونوبات التمرد. لكنها الليلة، تحولت إلى سوط يصفع لامبالاتي، ويحرك أشياءً في الرمق الأخير.

لماذا الليلة؟ هيا اعترف أيها الرجل العنيد المكابر. اعترف أنها تلك المرأة عسلية العينين، طويلة الشعر، فارعة القوام، دافئة الصوت، ذات الموهبة النادرة فى مزج الألوان، والظلال، وتشكيل اللوحات.

افصح عن الحقيقة، واعط الفضل لـ صاحبته.

اقتحمت فى رشاقة أيامى المتخمة بـ الركود. لم أتصور أن لقاءً عابراً بها، سوف يقلب كيانى، ويبعثر حياتى.

فوجئت بها فى مكتبى، تحمل لى دعوة لـ معرضها الأول.

وعدتها بـ الحضور. إن متابعتى للحركة الفنية، من صميم اهتماماتى وعملى. لكن الجديد مع تلك الفنانة الشابة، أننى أحسست بـ شىء غريب يشدنى إليها.

شىء ما فى ابتسامتها الواثقة يدعونى للتأمل. وجهها خالى من المساحيق، والكحل، وأحمر الشفاه. ملامحها نهار لم يتنفسه أحد. خصلات شعرها مبتلة بالماء، منسابة فى فوضى، تشع بهجة. لا تضع الأساور، أو الحلقان، أو الخواتم. شفتاها ممتلئتان بـ خمر الدهشة والحياء. يلف قوامها الفارع رداء له لون وهدوء البنفسج. ترقد فى عينيها أشجان لا عمر لها، فى حركتها قلق مفعم بـ زمن لم تعشه.

لا أنسى ترحيبها حين ذهبت لـ مشاهدة لوحاتها. منحتنى اهتماما خاصا، أضفى على المكان ألفة، وبريقا.

لفت انتباهى أن اليوم أيضا، شعرها مبتل بـ الماء. تبدو كالسمكة النضرة خرجت لتوها من البحر. أدهشنى ثراء وتنوع لوحاتها. تصور الطبيعة، ووجوه الناس بالدرجة نفسها من البراعة والاحساس. فى

خطوطها جرأة تداعبنا حينا، وتصدمنا حينا آخر. تتأرجح ألوانها بين الهدوء، والصخب . تعزف بـ مهارة على ثنائية الظل والضوء. مرة نحسهما أضداد، ومرة هما فى تداخل وانسجام.

تمنح الحياة اليومية المتكرره الدهشة، وطزاجة الإحساس. تضفى على الأشياء التافهة، عظمة، وتكسب الشىء العادى غرابة.

سمعتها تقول لاحدى مشاهدات المعرض: «لاشىء تافه، لاشى عادى، كل شىء حولنا له معنى... المهم العين التى ترى».

اقتربت وسألتها: «ما سر الظلام الأسود المشع من بعض اللوحات؟».

قالت: «أعتم الطبيعة لأمنح الإنسان نوراً».

قلت : «هذا سر الظلام الأسود، ماذا عن سر الماء وخصلات شعرك؟».

ابتسمت قائلة: «اننى أمارس السباحة كل يوم. لا أتصور يوما لا أنزل إلى «الماء»، أحاوره، أداعبه، أغتسل من الأمس.. يمنحنى «الماء»، العزاء، وحكمة اليوم الجديد».

أعطتنى رقم هاتفها قبل مغادرتى قاعة المعرض.

لأيام طويلة شغلنى لقاؤها الأول. لست سريع الإعجاب بـ النساء. لكننى تساءلت ماذا أنا فاعل، مع سمكة متفلسفة، تعتم الطبيعة لتمنح الإنسان نوراً؟

ولأننى رجل الانطباعات الأولى، لم يكن لى مهرب. ماذا سيكون مصيرك، أيها الرجل المتعب عشرة سنوات، مع امرأة مائية الشعر والمزاج؟

تبادلنا المكالمات الهاتفية.. جاءت إلى مكتبى عدة مرات. تأتينى ومعها اسكتشات جديدة، تناقشنا حول الفن، والحرية. طلبت أن ترسم ديوان أشعارى الجديد.

قلت لها: «لا تعرفين شيئا عن حياتى. منذ سنوات توقفت عن الشعر، اكتفيت بـ كتابة لمقالات».

تقول: «لاشىء يوقف الفنان إلا الموت».

أصبح الأحد، يوم صدور المجلة، لقاء منتظماً عبر الهاتف.. تطلبنى تمام العاشرة، وتقول رأيها فى مقالى الأسبوعى. بـ رقة بالغة، تختلف معى. وأتعمد قول شيئا مناقضا، لأصل إلى منتهى رقتها الكامنة.

اعترفت بأنها تتابع أشعارى، وكتاباتى منذ فترة طويلة. لكنها فضلت أن يجىء التعارف بيننا مع معرضها الأول.

منذ أول لقاء، واحساسى بها غير محايد. هى الأخرى، أشعرتنى أننى أكثر من صديق، يحدثها بـ لغة الفن.

ولأننى بالفطرة رجل نبيل، له شيمة الفرسان، التزمت بـ حدود الصداقة بين فنان وفنانة.

فى أوقات كثيرة، أردت أن أقول لها «وحشتينى» .. كم تعذبت ليال، وددت لو أطلبها عبر الهاتف وأدعوها إلى العشاء، أو إلى حفلة موسيقية بـ دار الأوبرا.

تداعب نرجسية الفنان داخلى، حين تسألنى «أهناك قصيدة جديدة فى الأفق؟». أحبها كما لم أتصور، حين تعاتبنى: «متى تعود إلى الشعر؟».

بالأمس، التقينا صدفة فى احدى المراكز الثقافية، دعتنى للحديث عن الفن والابداع. رأيتها تدخل المكان، نجمة مبهرة الضياء.

شعرها الثائر على الترتيب، خطواتها السريعة، وبساطتها الأنيقة، تميزها عن جميع الحاضرات. لها حضور طاغ، يفرض شخصيتها على الناس.. جلست فى الصف الأول.. تتلاقى عيوننا فى لحظات.. فـ أرتجف.

تحدثت فى الندوة، حديثا لا تقوله النساء، وليس يعجب إلا قلة نادرة من الرجال. بحديثها المختلف لمست آخر الأوتار المنسية.

بعد الندوة جاءتنى قائلة: «سأنتظرك غداً فى مرسمى الخاص.. لك عندى مفاجأة..».

فاجأتنى. لأول مرة، تبادر وتدعونى إلى لقاء خاص، منفرد. أحرجتنى جرأتها، وأربكتنى.

امرأة لديها شجاعة مواجهة العالم، بدون مساحيق، لا يصعب عليها دعوة رجل غير محايد.

يعبر صوتها الدافئ، مسافات احراجى وإرتباكى : «لا تتأخر.. أنا فى انتظارك».

أترك الشرفة، وأعود إلى مرقدى، بـ جوار المرأة الملتحفة بـ الشخير، والدهون، واللون الأحمر.

«غداً أراها»... همست لـ نفسى وأنا أسلمها للنوم.

كيف مرّ الوقت سريعا، لأجدنى أمام باب المرسم، الثامنة مساءً، حاملا باقة من الورود الصفراء؟

فكرت فى الانصراف، لكن شيئا أقوى من ترددى، دق الجرس.

استقبلتنى بـ ثوب له لون البحر، وابتسامة عذبة، تبحث عن قلب مهيأ للأخذ.

«أهلا.. تفضل».

صوتها الدافئ، يذيب بقايا ترددى.

جلسنا فى ركن تحيطه اللوحات، و «الزرع»وحنان البدايات.

قلت: «مكان مثالى للتأمل والابداع.. انه لوحة فنية رائعة التكوين».

قالت : «هذه واحتى، وصومعتى.. مَنْ اجتازها دخل إلى عالمى الخاص».

أنا يا مَنْ يشتغل على الكلمة، لم تسعفنى كلمات توازى ما قالته.

أخذت الورد، وذهبت تعد الشاى. أتجول فى المكان، يغمرنى زهو، وفرحة خفية تبدأ فى التحرك.

تزين الجدران لوحات لأشهر رواد الفن التشكيلى فى مصر، مثل «ناجى»، «يوسف كامل»، «راغب عياد»، «محمود سعيد»، «سيف وانلى»، «بيكار» «جاذبية سرى»، «تحية حليم»،«صلاح طاهر»، «حامد ندا»، «صبرى راغب»، وغيرهم..

فى ركن آخر، تحتفظ بـ أعمال لـ جويا، بيكاسو، دافينشى، وآخرين.

وفى زاوية أخرى، لوحات لها.

لفت انتباهى صورتان، لـ كاتبتين، الأولى لـ «مى زيادة» والأخرى لـ «فرچينيا وولف».

أسـألهـا وهـى تصب الشـاى: «لماذا مى زيادة، وفـرچينيـا وولف بالتحديد؟».

قالت : «كل منهما تجسد مأساة المرأة المبدعة. واحدة تموت وحيدة فى مستشفى للأمراض العقلية بعد اتهامها بالجنون. والثانية تقدم على الإنتـحـار. وكل منهـمـا خـاضت صراعاً طويلاً مع الوحـدة ونوبات الإكتئاب».

قلت : «الإبداع ثمنه غالى».

تقول : «والمرأة المبدعة تدفع أكثر من الرجل المبدع».

أقول : «أتتوقعين المصير نفسه».

قالت : «ولم لا؟»

أعـجبنى ردها، وزادنى شوقـا إليهـا. كم هو جمـيل أن أحب امـرأة مبدعة، تنتظر الوحدة أو الإنتحار، أو الجنون، محطتها الأخيرة.

مللت النساء اللائى ينتظرن الزواج مصيـراً لهن. تعبت من النساء اللائى ينتظرن الستر والأمان.

ارتشافات الشاى، ساخنة الصمت.

قلت قاطعا الصمت : «لديك مجموعة متنوعة من اللوحات ومن كل مكان فى العالم».

قالت : «الفن لا وطن له، ولا جنس له».

قلت : «هذا صحيح لكن أعتقد أن هناك فنان أحب وأقرب إليك».

قالت : «أحب شيئا فى كل منهم. مثلا يعجبنى «جمال كامل» فى

رقته التى تخاطب العقل والقلب، «راغب عياد» فى التصاقه الحـــميـم بـ حياة الناس، وثقافته الرحبة، مع «جاذبية سرى»، أحس أن الألوان كائنات حية.. يبهرنى وهج العاطفة المشع من لوحات «فان جوخ»، وتمكنه من تشكيل الضوء كما يشاء..

وأحب فى «دافـينشى» أنه لا يعـتـبـر النور والظلام عنصـرين متضادين، بل هما متساويان فى الأهمية الكونية. عكس «فرمير» الذى يعطى الأفضلية للنور.

أما «رامبراندت» فـ علمنى أن أرسم لـ عين الخيال المختبئة، لا لعين الجسد الظاهرة .. وهكذا القائمة طويلة جداً...

قلت «ترسمين للبصر والبصيرة».

قالت : «هذا تعبير جميل».

فى العيون أشواق مضطربة، وعلى الشفاه كلام غير مباح.

فاجأتنى قائلة : «وحشتنى».

فى صـوتهـا كل الحنين المؤجل، وحب السنوات الضـائعـة. تريد التخلى عن الكلفة بيننا. تصر على شىء أكثر من الصداقة. وأنا مازلت مصراً على ارتباكى، وترددى.

قلت : زمان كنت أرسم.. لكن الشعر هو الذى فاز فى النهاية».

قالت : «الرسم شعر نراه دون أن نسمعه، والشعر رسم، موجه للعين لا إلى الأذن».

قلت : «تعجبنى هذه المقارنة».

قالت: «تكلمنا عن كل شيء، ولم نتكلم عن أهم شيء...».

قاطعتها متسائلا : «فين المفاجأة؟»..

تنهض صامتة .. لم تتوقع هذا الرد.

أحضرت لوحة مغطاة.. أزالت الغطاء قائلة: «ما رأيك؟».

مفاجأة حقا.. إنها أنا.. صورتى، ملامحى، وجهى.

تسألنى «هل أعجبتك؟».

قلت : «اعجابى أكبر من أى كلام.. الملامح تشبهنى، ولا تشبهنى.. الوجه قريب، وبعيد».

قالت : «حاولت أن أصور الرجل الآخر المختبئ. أو لعله الرجل الذى أريد أن أراه فيك».

أقول : «تقصدين الشاعر؟».

قالت : «الشاعر، والرجل، و الإنسان. لقد أحسست بـ الرجل المسجون داخلك. تجاوزت ملامحك الخارجية، لألمس حقيقة الوجه».

سألتها : «كيف صورت هذه النظرة فى العينين؟ إنها تنادينى، تشدنى، تربكنى.. تقلقنى.. مزيج غريب من الحنان والقسوة يطل من العينين».

قالت : «كم أرهقتنى تلك النظرة وأنا أرسمها، قاومتنى كثيراً وراوغتنى. كنت كَمنْ يحاول اصطياد الهواء، أو قطرة ماء. من أجل ماذا، تحبس روحك؟ هزنى سؤالها. اكتشف مأساتى لأول مرة منذ عشرة سنوات. فى لحظة فنية، أطلقت سراحى.

كيف لـ صورة أن تستعيد الأصل؟ وكيف استطاعت أن تخرج الرجل الذى كنته فى الماضى البعيد؟

يدهشنى ردها، كأنما قرأت أفكارى: «لأننى أحببته.. أحببت الرجل الآخر فيك».

أسألها متأملا عينيها : «لماذا تصرين على جعل الأمور أكثر صعوبة؟».

قالت : «أعتقد أن صراحتى تريحك».

أقول متأملا الصورة : «الراحة إلى حد الوجع».

يخفت صوتها : «ألهذه الدرجة أنت معذب؟».

أقول: «لهذه الدرجة حريص عليك».

يتألق صوتها بـ رعشة : «أفهمك ولا أفهمك فى الوقت نفسه».

قلت : «منذ أول لقاء، أحسست أن قصة ما ستجمعنا. امرأة مثلك لايمكن أن تمر بـ حياتى، وأبقى سالما. مثل الزلزال أنت لابد أن تهزى الأشياء، تعيدى شكل الأرض، ومعالم الحياة. لكننى لا أستطيع التحليق معك. امنحينى وقتا بينى وبين نفسى.. أحتاج بعض الوقت لأعود إلى حقيقَتى، وأصبح جديراً بكِ».

قالت : «سأكون فى انتظارك».

سألتها : «هل تتركين لى الصورة؟»

قالت : «إنها لك».

قلت وأنا أودعها عند الباب : «أعدك أنك لن تنتظرى طويلا».

ذهبت.. بعد لحظة، أسمع صوتها ينادينى.. رجعت إليها.. قالت فى نبرة حانية: «نسيت أن أشكرك على الورد».

الليلة الأخيرة

كنت

كنت أشعر أن عمرى مثل الزهور، أيام معدودات، وتمضى بـ عبير الذكرى.

كنت أحس أننى شهيق عميق لا تتحمله رئة الكون، وأن وجودى كلمة كتبت خطأ، على هامش الوجود.

أنتمى إلى بيت كرم، والكريمة لا تثقل فى الضيافة.. لابد أن تعبر مرور الكرام، تلم أشياءها فى هدوء، تعتذر فى أدب، وترحل إلى مصيرها المجهول فى شكر وامتنان.

كنت مؤمنة بـ أن العدالة الالهية، تقتضى ألا تطول معاناتى مع هؤلاء البشر حمقى البصر والبصير.

قابضون على ملذات الدنيا، كأنهم فيها خالدون. لايتعظون من مصائب الحياة. لا يأتى الغد إلا بـ أخطاء الأمس.. كأن الذاكرة كأس للنسيان.

لم يفارقنى التساؤل، لماذا جئت فى هذا الزمان وهذا المكان؟ أرض الله واسعة، فما الحكمة أن أعيش عمرى معذبة؟ عمراً أحسه عبئاً على العمر.. حدثاً ضد مسارات التاريخ، وموجة شاردة تلفظها الأرض وتبرأ منها البحار.

جعلنى احساسى بـ أن عمرى كـ الزهور، جامحة المشاعر، متطرفة المزاج. ألهث لاعتصار الحياة، رشفة واحدة مكثفة المذاق.

أنا فى سباق مع الزمن، لست ألتفت إلى الماضى.. مع شروق الشمس، أولد امرأة متعطشة للجديد، مشتاقة لـ طزاجة التجربة.

لم يكن عندى وقت، للتحسر على شىء فات، أو علاقة انتهت قبل الأوان. ليس هناك متسع من الزمن لأحب الرجل الواحد مرتين، أو أطرب مرتين للأغنية نفسها.

فى عجلة من أمرى.. أنا امرأة البدايات السريعة، والنهايات الأكثر سرعة. امرأة خيبات الأمل المفهومة، والتحقق غير المفهوم.

وتشاء الأقدار، أن أكون من مواليد «برج الحمل» .. انه الـ «برج» المثالى لامرأة متقلبة الأطوار، حادة الانفعالات. إنه برج «النار» التى تطيح بـ كل شىء، و «الهواء»، لا مستقر له، ولا أمان.

دفعنى شعورى بأننى لست فى زمانى ومكانى، ألا أبالى بـ أحكام الناس. مجرد الإستماع إليهم، يعنى نوعا من اللامنطق، أو العبث، لا يسمح عمرى القصير بـ احتماله.

أنبأنى قلبى بـ المصير الغريب، الغامض. صدقت نبوءة قلبى. ولم يبق فى عمر الزهرة، إلا ساعات محسوبة.

دائما فكرت فى نهايتى.. كيف شكلها؟ متى يجىء أوانها؟ أين سأكون حينما تأتى؟ هل سيلائمنى توقيتها؟ إلى أى مدى سأكون مهيأة للرحيل؟

يؤرقنى ألا يجىء موتى بـ شكل لا يدل على حياتى. تمنيت أن تكون نهايتى من نسيج بدايتى.

استجاب القدر لأمنيتى، وأطلق فى جسدى ناراً تأكل أحشائى. أحمل فى خلاياى الحية بذور فنائى.. جسدى يرفضنى، يلفظنى، يدمرنى، كما عشت أرفضه، وألفظه، وأدمره.

انتقام عادل من الجسد، ضد صاحبة الجسد.

قصاص أتقبله بـ طيب خاطر، ألم يكن العدل دوما غايتى؟

ماتت جدتى لأمى، بـ المرض نفسه. وفى هذا عزاء.

عشت عمرى أناجى جدتى.. بينى وبينها، علاقة حميمة، رغم أننى لم أعاصرها إلا شهوراً قليلاً. أحملها فى دمى، أستحضرها فى لحظات أحزانى وفرحتى.. حاولت أن أعيش ، أحلامها المجهضة. بينى وبينها أشياء لا تصيغها الكلمات، وأغنيات يعجز عنها الغناء.

النار نفسها التى أكلت جدتى فى ريعان شبابها..

يا لفرحتى. أحسست بـ آلامها.. عشت لحظات معاناتها.. أطلقت صرخاتها الموجعة فى سكون الليل، وكأننى بالمصير نفسه، أعتذر لها بـ النيابة عن القدر.

يتأملنى الطبيب فى نبرة خافتة ويقول : «كنت تتبعين نصائحى بـ دقة، ماذا حدث لك؟».

قلت : «لا أريد مسكنات» .

يسألنى مندهشا: «كيف تحتملين الألم؟» .

قلت : «من قال أننى أحتمله . إنه يفتتنى كل ليلة» .

يقول: «قد يريحك المسكن قليلا» .

قلت : «كل اكتشافات الطب لا تفيدنى، ومسكنات العالم لا تمنحنى لحظة راحة . اتركونى أواجه الألم وحدى» .

يرمقنى الطبيب عاجزاً أمام جسدى المتهالك، العنيد حتى فى أواخر أيامه .

أسأله : «اقتربت جداً أليس كذلك؟» .

يقول : «خذى المسكنات» .

كلما سألت الطبيب عن النهاية، هرب من عيونى المتسائلة .

لست فى حاجة إلى إجابة . انها فى دمى . أحس بـ النهاية بين ضلوعى، ألمسها تحت جلدى، ألمحها فى نظراتى الشاحبة، ووجهى الذى تغير لونه، وتجعدت ملامحه .

ليلة الأمس «الأحد»، أحسست أننى أتنفس نهايتى. أمنيتى أن أرحل يوم الأحد . إنه يومى المفضل بين الأيام . ولدت يوم أحد، وأسعد لحظاتى عشتها أيام الآحاد . لكن القدر خذلنى . ليلة الأمس رحل الأحد، وبقيت أنا .

إلى متى هذا العذاب .

لا أصدق أننى كل ليلة، يكتب لى عمر جديد، بعد أن أنهكنى صراعى مع الألم .

أتذكرنصيحة الناس بـ الزواج. قالوا لى «إذا مرضت لا قدر الله، من يرعاك ويسهر على راحتك؟ لن ينفعك إلا زوج تحصلين عليه فى وقت مبكر».

لم تقنعنى هذه النظرة النفعية للزواج. لا أفهم كيف أحضر رجلا غريبا إلى بيتى، أحتمل مساوئه خوفا من المرض، ومصائب الزمن.

كوارث الدنيا عندى أهون من رجل التصق بـ صحبته وعيوبه. الوحدة، والمرض، أقل ايلاما، من تنازلى عن حريتى، مقابل رشفة دواء.

متى النهاية؟ متى؟

يقولون أن النهاية تأتى، حين يصل الألم إلى ذروته. لاتزال فى الأفق، مسافات من الألم أجتازها وحدى.

لو كان بـ إمكانى التعجيل بالنهاية. لو أستطيع الوصول بـ الألم إلى منتهاه. لكن كيف؟

لابد أن أساعد نفسى، على أقصى تألم ممكن.

أخذت أفكر فى حياتى ترى ماذا كانت أكثر الأشياء ايلاما، لأستحضرها الآن؟

اجتاحتنى كل أنواع، وأشكال الآلام. لكن شيئا واحداً، ظل فى حياتى، أعظم ألم. شىء واحد، يمزق روحى، ويوجع جسدى. وكلما مرت السنوات، ازدادت ضراوته وامتد جبروته إلى أماكن منسية فى كيانى. انتصرت على كل الآلام، إلاهذا الألم . وقف ساخراً من كل محاولاتى، متلذذاً بـ سادية لا يحتملها بشر.

أن أرى ذلك الرجل، لم يكن يعنى إلا الألم المفـــرط فى الروح، والجسد، ولا حق لى فى الصراخ، أو الأنين.

كل رجال العالم لا يحركون فىّ ساكنا، ومجرد رؤياه هو، تدمرنى.

أتألم حين ألقاه.. أتألم حين أسمع صوته.. أتألم حين كان يغيب، وأتألم أكثرحين يحضر. يؤلمنى حين يكون قاسيا، تؤلمنى رقته أكثر.

منذ أول لقاء، أدركت أنه الرجل المحال أدركت أنه عذابى المعاش، ونعيمى غير المتحقق.

مسموح لِى بأن أحب أى رجل كان، إلا هو. أمامى رجال الدنيا، أختار لـ قلبى مَنْ أشاء.. إلا هو..

مرت سنوات طويلة على اللقاء الأخير. ماذا لو اتصلت به الليلة، وطلبت منه المجىء؟

لاشىء يفوق تألمى، وهو يرانى فى هذه الحال المتهالكة، بعد أن فقدت شبابى، وحيويتى. لقاؤه الليلة يقضى على الباقية منى.

جاءنى صوته مذهولا: «لا أصدق؟ أنت حقا؟ أنت حقا؟بعد كل هذا العمر؟ أنت حقا؟ والليلة؟ تصورى منذ أيام وأنا أفكر فيك، كنت سأتصل بك. هناك أشياء كثيرة حدثت أخيراً لابد أن تعرفيها.. لا أصدق توقيت مكالمتك».

قلت : «أرجوك لا تضيع الوقت فى الكلام. أريد أن أراك الليلة».

يسألنى : «مال صوتك».

قلت : «تعال أرجوك.. أريد أن أراك الليلة».

يلح فى السؤال: «صوتك متغير» ؟

قلت : «لا تتأخر» .

لن أتجمل، أو أخفف من بصمات المرض. أريد أن يرانى كما أنا، صورة محطمة، مجردة من كل شيء، إلا اشتياقى لـ رؤياه، لآخر مرة.

انتظاره رصاصات تفتك بـ جسدى.

أقبل أيها الألم، لا تترفق، أننى الليلة مهيأة للنهاية. إنها أمنيتى الأخيرة، فلا تبخل بها أيها القدر. حرمتنى الحياة معه، نسيت وسامحتك. أرجوك امنحنى الموت وأنا بين يديه.

هاهو يطرق الباب. أنهض إليه.

أزمنة الفراق، والألم تنتصف المسافة بين تألقه، وذبولى.

تنتقل عيناه بين علب الأدوية المتناثرة فى فوضى، وجسدى المتهالك... يسألنى دون كلمات.

عبر خيوط الصمت، تهتز الذكريات، وتطالبنى دهشته بـ حقها فى الفهم.

قلت : «شكراً لأنك جئتنى.. لا تسألنى عن أى شيء .. فقط كن معى الليلة.. أرجوك الليلة فقط» .

يقول : «الليلة والليالى الآتيات.. كل شيء تغير، والظروف أصبحت لـ صالحنا. لم يعد هناك ما يفرقنا بعد الآن.. نستطيع أن نبدأ حياتنا كما نريد. أيا كان مرضك، سوف تشفين قريبا، سأكون معك. لن أتركك لحظة واحدة بعد الآن» .

لست أحتمل ما أسمعه. أهى قسوة من القدر، أم رحمة؟ عشت العمر فى انتظار اللحظة التى تسمح بـ الوصال المحال. كم آلمنى الحرمان منه. والليلة، ما أشد الألم، حين أصبح لى .

قلت: «الليلة تسمعنى هذا الكلام»؟

يسألنى : «ماذا تعنين؟»

قلت : «لا تسلنى عن أى شىء»..

يلح فى السؤال : « أريد أن أفهم»

قلت : إننى أموت منذ شهور.. لست ناقمة على مصيرى.. لكنه الألم الذى يهدنى كل ليلة.. أرجوك لا تطلب منى الكلام أكثر من هذا الحد. فقط كن معى الليلة. أحس أن القدر، لم يمهلنى إلا لأراك».

يقترب منى يحتضن يدى ويقول: «لماذا لم تخبرينى».. كيف تحتملين كل هذا وحدك..»

تخرج نبرات متقطعة : «فات أوان كل شىء، لا جدوى من الكلام والعتاب.. فقط كن معى.. لا تتركنى الليلة.. ما أروع الرحيل وأنا أتأمل عينيك..»

يقول فى صوت أقرب إلى الهمسات : «اعذرينى يا حبيبة عمرى.. جئتك متأخراً»..

أهمس له: «لم أحب سواك طوال عمرى. أنت الرجل الوحيد الذى أتمناه معى، وأنا أودع الحياة».

يسقينى عصارة الألم مركزة، حين يصرح لأول مرة بـ الكلمة المحرمة بيننا : «أحبك».

يسكن لحظة ثم يقول : «أراك الليلة أجمل النساء».

هل كان لابد أن أموت، لكى يسمعنى أحلى الكلمات؟. هل كان لابد أن أنتهى، حتى تبدأ بدايتنا معا؟

افتديت حبى بـ عمرى.. ما أهونه من ثمن.

يأتينى صوته : «حبيبتى مالك».

قلت : «لاشىء.. خذنى إلى الشرفة، أريد أن أشاهد غروب الشمس معك لآخر مرة».

أتحامل على نفسى، وأسير معه حتى الشرفة. القرص الأحمر يعانق صفحة النيل. أنغام شجية ترسلها السماء.. والهواء معطر بـ حسرة اللقاء.

يسند جسدى المتهالك بـ أشواق زمان لن يأتى.

أحس أن روحى تنسحب من جسدى، أتشبث بـ يده. شىء ينادينى للرحيل، وشىء يزين لى البقاء.

يمتزج بكاؤنا لحظة اختفاء الشمس.

يأتينى توسله الخافت : «ابقى معى».

ارتميت فى عينيه، لأغفو مطمئنة النفس، غفوتى الأخيرة.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧٥/١٩٩٩
I.S.B.N 977 - 01 - 6552 - 2